سلسلة مداخل العلوم

عِلْمُ الفَلْسَفَة

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

1

مدخل إلى علم الفلسفة

اسم الكتاب : مدخل إلى علم الفلسفة

إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الأولى : آذار ٢٠١٠م - ١٤٣١هـ

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

بيروت - لبنان - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

مركز نون للتأليف والترجمة

سلسلة مداخل العلوم

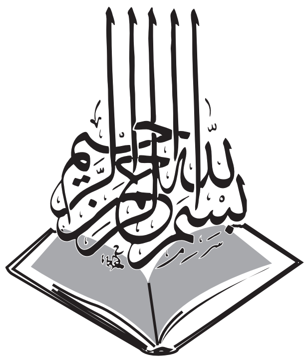
مدخل

إلى علم الفلسفة

إعداد

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الدرس الثالث

الدرس الرابع

الدرس الخامس

الدرس السادس

الدرس السابع

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مـا زالت العلوم الإسلاميّـة تحافظ على أصالتها وحيويّتهـا، رغم التحديّات العصريّـة الكبيرة، ورغم التطوّر العلميّ الهائل الـذي شهده القرن الأخير، وما زال طـلاب العلـوم الإسلاميّة يسعون لدراسة الفكـر الإسلاميّ، وهم محتاجون فـي فهم الشريعة، وفهم القـرآن الكريم، وفهم التـراث الإسلاميّ إلى عددٍ من العلـوم الإسلاميّة، ممّا يستدعي أن يبذلوا قصـارى جهدهم، وأن يمضوا سنيناً من حياتهم في سبيل هذا الهدف.

وبعـد اتسـاع نطاق هذه العلوم وتشعّبها أصبح من الضـروريّ جدّاً وجود ما يقدّم لمحةً عن العلوم الإسلاميّة، بذكر مقدّمات كلّ علم، وفترة وأسباب نشوئه، وتطوّره، والأسلـوب المتّبع فيـه، وأهمّ أبحاثه وكتبـه والعلماء المؤسّسين لـه، ومدى الحاجة إليـه والاستفـادة منه، وقد اصطلح على هذا النحو مـن المعرفة اسم مداخل العلوم الإسلاميّة.

وبعد أن رأى مركز نون الحاجة إلى كتابة كتاب مستقلٍّ لمداخل العلوم، قام بتدوين مدخلٍ لكلٍّ من الفلسفة والفقه والأصول والكلام الإسلاميّ، ويعمل على كتابة مدخل

إلــى العرفان وغيــره من مداخل العلوم معتمــداً على عددٍ من المصــادر والمراجع المختصّــة في مجالها، سائــلاً المولى أن يكون قد ملأ فراغــاً في مجال المعارف، راجياً من اللّه أن يلقى قبولاً لدى طلاب المعرفة والحوزات والمعاهد الإسلاميّة.

إنّه نِعم المولى ونِعم المجيب.

مركز نون للتأليف والترجمة

سلسلة
مداخل العلوم

مدخل
إلى علم الفلسفة

الدرس الأوّل

ما هي الفلسفة؟

أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى أهميّة الفلسفة والغاية منها.

٢. أن يتعرّف إلى أسلوب البحث الفلسفيّ.

٣. أن يدرك موضوع علم الفلسفة.

١- الحاجة إلى الفلسفة:

إنّ من أهمّ الغرائز الإنسانيّة هي غريزة البحث عن الحقيقة، وغريزة حسّ التتبّع الذي لا يعرف الكلل ولا الملل. فالإنسان في تعطّشٍ دائمٍ للمعرفة. وهذه الغريزة موجودةٌ عند الجميع وإن كانت بشكلٍ متفاوت. وقد أفرد الإنسان لكلّ مجموعةٍ من المسائل المترابطة فيما بينها علماً خاصّاً بها. ومن بين تلك العلوم هو علم الفلسفة، الذي يجيب عن أسئلةٍ كثيرةٍ تخطر في ذهن الإنسان؛ كالتي تسأل عن أصل الوجود، وعن بداية العالم ونهايته، وعن وجود الملائكة أو الروح، وعن سعادة الإنسان وشقائه. ولا يوجد إنسانٌ في هذه الدنيا لا يحاول أن يجيب على هذه الأسئلة في نفسه، وحين لا يجد الجواب قد يُقنع نفسه بالأسطورة. والعلم الذي يؤمّن لنا الإجابة على هذه الأسئلة ونحوها هو الفلسفة. ونلاحظ أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا العلم، لأن هذه الأسئلة فطريةٌ وموجودةٌ في طبيعة كلّ إنسان، وهو بطبيعته يبحث عن حلول وإجابات لأسئلته هذه، فكان علم الفلسفة هو الذي يروي عطش هذه الحاجة.

وكثيراً ما نجد أنّ الإنسان يُخطئ في حياته ومعتقداته، فيعتقد بأمورٍ لا أساس لها من الصحّة، وتنعكس هذه المعتقدات لتؤثّر مباشرة على سلوكه في الحياة. فقد كان الإنسان يعتقد بخرافاتٍ كثيرةٍ أثبت العلم الحديث بطلانها.

وما زال بعض البسطاء يعتقدون بوجود الحظ أو الغول وما شابه ذلك. ونجد أنّ أخلاقهم وأعمالهم وملكاتهم النفسيّة تتأثّر بهذ المعتقدات. وهنا تكمن أهميّة علم الفلسفة فإنّه يُعطي الميزان والمعيار للأشياء الحقيقيّة الموجودة، التي من خلالها نستطيع أن نميّز الموجود الحقيقيّ عن غيره من الأوهام والخُرافات، وما أعظمها من حاجةٍ للإنسان.

٢ ـ أسلوب البحث الفلسفيّ:

وحيث إنّ علم الفلسفة هو الذي يؤمّن الاعتقاد الصحيح للإنسان، فلا بدّ له أن يعتمد على أسلوبٍ محكمٍ وأساسٍ ثابتٍ في استدلالاته، لأجل أن يكوّن الاعتقاد الصحيح، فالشعر الذي يبتنى على الصور والتشبيه والخيال لا يكوّن اعتقاداً محكماً، والخطابة التي تقنع المستمع بأسلوبها الساحر وما يستعمله الخطيب من مؤثراتٍ لا يمكن أن يشكّل أساساً محكماً للاعتقاد، لذلك نجد علم الفلسفة لا يعتمد إلّا على البرهان واليقين، الذي يكشف الحقيقة بشكلٍ تامٍّ وواضحٍ لا يعتريه أيّ شكّ، ولا يمكن زعزعته على الإطلاق.

مصطلح الفلسفة والسفسطة:

أجمع العلماء ـ ممّن اطلع على اللغة اليونانية قديماً وحديثاً وعلى تاريخ اليونان العلميّ القديم ـ أنّ لفظ الفلسفة مُعرَّب من (فيلوسوفيا)، المؤلّفة من كلمتين في الأصل: (فيلو) و(سوفيا)، والأُولى منهما تعني المحبّ، والثانية تعني الحكمة، فيكون معنى الكلمة هو محبّ الحكمة [١].

وقد ظهرت جماعةٌ في اليونان القديم قبل سقراط أطلقت على نفسها اسم (سوفيست)؛ أي العالِم، واتخذت من إدراك الإنسان مقياساً لمعرفة الحقائق، ثمّ بدأت باستعمال المغالطة في استدلالاتها، فأوجدت موجةً من الشكّ والفوضى،

(١) الشهرستاني/ الملل والنحل / دار المعرفة ـ لبنان/ ج٢ ص ٥٨.

خاصّةً بعد أن أتقنت هذه الجماعة فنَّ الخطابة، ومارست مهنة القضاء والمحاماة، فكانت ما تثبته اليوم تنفيه بالغد، وما تنفيه بالغد تثبته فيما بعده، فظهر بذلك الشكّ في كلّ شيء وأدّى إلى إنكار الحقائق والواقعيات، عندها أُفرغت هذه الكلمة من معناها الحقيقيّ، وصارت مرادفة للمغالطة، وعُرِّبت هذه الكلمة (السفسطة) لتستعمل في معنى المغالطة، وما زال هذا الاستعمال رائجاً حتّى اليوم.

تصدّى لهذه الجماعة سقراط. ولأجل هذا المعنى الجديد الذي التصق بلفظ (سوفيست) رفض أن يسمّي نفسه بها، وإنّما أطلق على نفسه اسم (فيلوسوفوس) أي محبّ الحكمة. ثمّ ارتقت بعد ذلك هذه الكلمة لتصبح بمعنى العالِم. وفي المقابل انحطّت كلمة (سوفيست) من معنى العالِم إلى معنى المغالِط. وبعد تعريب الكلمة صارت كلمة الفلسفة مرادفةً للعِلم، والفيلسوف للعالِم[(١)].

موضوع الفلسفة:

ولكي نُحدِّد موضوع الفلسفة نقوم أوّلاً بتشبيه العالَم بجسم الإنسان، ونحن بإمكاننا دراسة جسم الإنسان بنحوين وكيفيتين:

الأولى: هي أن ندرس هذا الجسم لكن من زاوية خاصّة، كأن ندرس الأعضاء عضواً عضواً، فندرس العين والأعصاب والقلب وهكذا، فإنّ هذا النحو من الدراسة دراسة خاصّة واختصاص ضيّق صغير بالنسبة لكلّ جسم الإنسان، وذلك لأنّ موضوع هذا العلم ضيّق ومحصور في مجال العضو الذي يبحث عنه.

الثانية: هي أن ندرس جسم الإنسان من ناحية عامّة، فنسأل مثلاً: متى جاء هذا الجسم؟ وإلى متى يبقى؟ وهل لهذا الجسم علّة أوجدته؟ وما هي علاقة الجسم بعلّته؟ ما هي الصفات التي ينبغي أنّ تتّصف به علّة هذا الجسم؟ هل

(١) راجع: مطهريّ. مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ / ص ١٠٠. ومصباح. محمّد تقي/ المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: / ترجمة: الحاقاني. محمّد عبد المنعم/ دار التعارف للمطبوعات ط.١٩٩٠/ ج١ ص ١٦.

هـذا الجسم حيّ؟ هـل كلّ أعضائه حيّة حتّى الظفر والعظـم؟ هل لهذا الجسم بمجموعه غاية وهدف يسير نحوه؟ وهل هدف الجسم هو كماله؟ أو أنّه لا هدف ولا غاية له أصلاً؟

ومـن الواضح جدّاً الفرق بين هذين النحوين من الدراسة، فالنحو الأوّل من الدراسة الذي يهتمّ بدراسة أعضاء العالَم هو العلم الخاصّ، والنحو الآخر الذي يهتـمّ بدراسة كلّ العالم هو الفلسفة. فهي التـي تبحث عن الموجود بشكل عامٍّ، لا مـن ناحية خاصّة وجهة خاصّة، بل تبحث عن صفـات الوجود العامّة، وكلّيّات المسائـل، كالأسئلـة التي تقـدّم ذكرها. ومن هنـا كان موضوعهـا ليس عضواً خاصّاً أو موجوداً خاصّاً ومحدّداً، وإنّما كان موضوعها الموجود على الإطلاق، أو الموجـود المطلق؛ أي أنّها تبحث عن الموجود مهما كان، ولكن بالأسلوب العلميّ التعقّليّ البرهانيّ، ومن ناحية عامّة، لا من ناحية خاصّة كما تقدّم.

خلاصة الدرس

يمكـن القول إنّ هناك حاجتيـن أساسيّتين للفلسفة، فكريّـة وعمليّة. فهناك أسئلـةٌ كثيـرةٌ تخطـر في ذهن الإنسـان؛ كالتي تسـأل عن أصـل الوجود، وعن بدايـة العالـم ونهايته، وعـن سعادة الإنسـان وشقائـه. والعلم الـذي يؤمّن لنا الإجابـة على هذه الأسئلـة ونحوها هو الفلسفة. وكثيراً مـا نجد الإنسان يُخطئ فـي حياتـه ومعتقداته، فيعتقد بأمـورٍ لا أساس لها من الصحّـة، وهي تؤثّر على أخلاقـه وسلوكه. والفلسفة هي التي تُعطي الميـزان والمعيار للأشياء الحقيقيّة الموجـودة، التي من خلالها نستطيـع أن نميّز الموجـود الحقيقيّ عن غيره من الأوهام والخرافات.

وحيـث إنّ علم الفلسفة هـو الذي يؤمّن الاعتقاد الصحيـح للإنسان، فلا بدَّ لـه أن يعتمـد على أسلوبٍ محكـمٍ وأساسٍ ثابتٍ في استدلالاتـه، لذلك نجد علم

الفلسفة لا يعتمد إلّا على البرهان واليقين، الذي يكشف الحقيقة بشكلٍ تامٍّ وواضحٍ لا يعتريه أيّ شكّ، ولا يمكن زعزعته على الإطلاق.

كما أنّ موضوع الفلسفة ليس موجوداً خاصّاً ومحدّداً، وإنّما هو الموجود على الإطلاق، أو الموجود المطلق؛ أي أنّها تبحث عن الموجود مهما كان، ولكن بالأسلوب العلميّ التعقليّ البرهانيّ، ومن ناحية عامّة، لا من ناحية خاصّة كما تقدّم.

أسئلة الدرس

١ ـ ما هي الحاجة إلى علم الفلسفة؟
٢ ـ ما هو الأسلوب الذي يميّز الفلسفة عن غيرها من العلوم؟
٣ ـ ما هو موضوع الفلسفة؟
٤ ـ كيف تطوّر مصطلح الفلسفة في اليونان القديمة؟

الدرس الثاني

تعريف الفلسفة

أهداف الدرس

١. أن يستذكر الطالب تعريف الفلسفة.

٢. أن يميّز بين التعريف اللفظي والتعريف الحقيقي.

٣. أن يتعرّف إلى تعريفات الفلسفة.

تعريف الفلسفة:

لعلّ أوّل سؤالٍ يطرحه طالب هذا العلم هو: ما هي الفلسفة؟ فهو يُريد تعريف هذا العلم، حتّى يستطيع من خلال التعريف أن يُميّزه عن غيره من العلوم، وحتّى يعـرف طبيعة المسائل التي تذكر عادةً في هـذا العلم. كما أنّ ملاحظة موضوع الفلسفة في الدرس السابق يساعدنا كثيراً على فهم التعريف.

أ ـ التعريف اللفظيّ:

كثيراً ما نسأل عن أشياء لا نعرفها. ويكون هدفنا من السؤال أن نعرف معناها اللغويّ، فنسأل عن معنى كلمة تصادفنا أثناء مطالعاتنا، ما هي هذه الكلمة؟ أو ما معنى هذا اللفظ؟ فعلى سبيل المثال لو لم يعرف شخصٌ معنى كلمة الهدهد، فتجده سوف يسأل: ما معنى الهدهد؟ وبمراجعة كتب اللغة يجد أنّ الهدهد اسم طير.

فكتـب اللغة قد عرّفت له معنــى الكلمة ومعنى اللفظ، لكن هذا التعريف يُعبّر عنــه أنّــه تعريفٌ لغـويّ، أو هو تعبيرٌ آخر عــن شرحٍ وتفصيلٍ لهــذا اللفظ وهذه الكلمة، لذلك أُطلق على هذا النوع من التعريف اصطلاح التعريف اللفظيّ.

ب ـ التعريف المعنويّ (الحقيقيّ):

ولكن كثيراً ما يكون الإنسان عارفاً المعنى اللغويّ للفظ والكلمة، ولكنّه يجهل

حقيقة هذه الكلمة، فنجده شوقاً للمعرفة يسأل: ما هو هذا اللفظ؟ وما هي هذه الكلمة؟ فمثلاً يقول: ما هو الهدد؟ وفي الحقيقة إنّ هذا الشخص يسأل عن حقيقة الهدهد، فهو يراه أمامه مثلاً، ويعرف أنّ لفظ الهدهد قد وضع لهذا المعنى، ولكنّه يُريد معرفة حقيقة هذا الموجود، فيسأل أيضاً عنه بما هو، ويُريد أن يعرف عنه أكثر وأكثر.

فيأتيه الجواب هنا لا من اللغة، بل من الفيلسوف المتخصّص بمعرفة حقائق الأشياء: الهدهد حيوانٌ طائرٌ ذو جناحين. وهذا النوع من التعريف الذي لا يُطلب منه شرح اللفظ، وإنّما يُطلب منه معرفة حقيقة الأشياء التي لا تختلف من علم لآخر هو الذي يعبّر عنه بالتعريف الحقيقيّ، أو التعريف المعنويّ.

وقد ذكرنا هذه المقدّمة لأنّنا نجد للفلسفة تعاريف مختلفة. ونحن سوف نذكر بعضاً من هذه التعاريف. ومن خلال هذه المقدّمة نستطيع تمييز التعريف الحقيقيّ عن التعريف اللفظيّ.

فالتعريف الحقيقيّ للفلسفة فهو «**العلم الباحث عن الأحوال العامّة للموجود**».

تعريفات أخرى للفلسفة:

بعد أن عرفنا ما هي الفلسفة، لا بأس بالإشارة إلى بعض التعاريف الأخرى المذكورة لهذا العلم:

أ ـ اسم لكلّ العلوم العقليّة[1]:

لقد كانت الفلسفة اسماً للعلم. والفيلسوف هو ذلك العالم الذي يطّلع على كلّ العلوم. فلم تكن الفلسفة بالمصطلح الشائع بين المسلمين اسماً لفنٍّ خاصٍّ، أو لعلمٍ مخصوصٍ، بل كانت شاملةً لجميع العلوم العقليّة – في قبال العلوم النقليّة

(١) راجع: مطهري ـ مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ / ص ١٠١. و مصباح ـ محمّد تقي/ المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: / ترجمة: الحاقاني ـ محمّد عبد المنعم/ دار التعارف للمطبوعات ط.١٩٩٠/ ج١ ص١٧ و١٨.

مـن قبيـل اللغة والنحو والصـرف والمعانـي والتفسير والحديـث والفقه وعلوم القـرآن -، فقد كانت العلوم العقليّة تقسّم عند أرسطو بشكل أساس إلى قسمين رئيسين:

١. **العلـوم العمليّـة**: وهي التي كان يُدرس فيها ما ينبغي أن يُعمل؛ وهي ثلاثة أقسام:

أ. **الأخلاق**: وهي ما ينبغي أن يفعله الإنسان مع نفسه.

ب. **تدبير المنزل**: وهو ما ينبغي أن يفعله الإنسان مع زوجه وعائلته.

ج. **سياسة المدن**: وهي ما ينبغي أن يفعله الإنسان مع المجتمع من حوله.

٢. **العلـوم النظريـة**: وهي التي كان يُدرس فيها ما ينبغي أن يُعلم؛ وهي ثلاثة أقسام أيضاً:

أ. **الرياضيات**: وهي التي يُدرس فيها الموجود من ناحية كونه كمّاً.

ب. **الطبيعيات**: وهـي الفيزيـاء التي يُدرسـ فيها الموجود مـن ناحية كونه جسماً.

ج. (**الفلسفة الأولى**): وهي التي يُدرس فيها الموجود لا من ناحية خاصّة.

وكلّ هذه الأقسام كان يُطلق عليها اسم الفلسفة، والعالم بها فيلسوفاً.

ب ـ ما بعد الطبيعة، أو الميتافيزيقيا[١]:

بعـد أن جُمعت آثار أرسطو في دائـرة المعارف، لاحظوا أنّ أرسطو لم يضع اسماً خاصّاً للقسم الأخير أي للفلسفة الأُولى. وبما أنّه قد وقع من حيث الترتيب بعد قسـم الطبيعيات، أطلقوا عليـه اسم ميتافيزيقيا. وميتا فـي اللغة اليونانيّة تعني بعد. وعندما ترجمت هذه اللغة إلى العربيّة ترجمت بما بعد الطبيعة. ومن هنـا صار اصطلاح ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقيـا اسماً خاصّاً للقسم الثالث

(١) راجع: مطهري ـ مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ / ص ١٠٦.

من العلوم النظريّة، وهو خصوص الفلسفة الأولى.

وقـد أدّت هذه التسميــة إلى ترجمتها إلى اللغة العربيــة بما بعد الطبيعة كما ذكرنـا. واشتبه على البعض وتصـوّر أنّ هذا تعريف حقيقــيّ للفلسفة، وأنّ هذا العلـم قد وضع للتعرّض للمسائل الغيبيّة التـي لا ربط لها بالطبيعة كالبحث عن اللّه والروح والملاك وما شابه ذلك.

واشتبـه آخـرون فقالوا إنّه ينبغــي تسميتها بما وراء الطبيعـة. والصحيح ما تقـدّم من وجه تسمية هذا العلم بما بعد الطبيعـة. وهي ليست إلّا تسميات لهذا العلم الذي لـم يضع أرسطو له اسماً خاصّاً. وأمّا التعريف الحقيقيّ لهذا العلم: فهـو العلم الباحث عن الموجود، سواء كان غيبيّاً أم لا، وسواء كان اللّه أم الروح أم الملاك أم أيّ موجود آخر لكن من جهةٍ عامّة، ومن حيث وجوده.

ويُطلق علـى هذا العلم تسميات أُخرى من قبيـل: الفلسفة الأولى، تمييزاً لها عن الفلسفة الثانية وهي الرياضيات والثالثة وهي الطبيعيات. ويُطلق عليها اسم الفلسفـة العليا مقابل الوسطى أي الرياضيــات والدنيا أي الطبيعيات، وقد يُعبّر عنها بعض فلاسفة المسلمين بالإلهيّات بالمعنى الأعمّ.

خلاصة الدرس

كثيراً ما نسأل عن أشياء لا نعرفها ويكون هدفنا من السؤال أن نعرف معناها اللغـويّ، فنسـأل عن معنى اللفـظ، وإذا حصلنـا على تعريف اللفـظ فيُعبّر عنه بالتعريف اللغويّ. ولكن إذا كنّا نعرف المعنى اللغويّ للفظ ونجهل حقيقته، وسألنا ما هــي هذه الكلمة؟ ونريد معرفة حقيقة هذه الكلمـة، والجواب يكون عبارة عن معرفة حقيقة الشيء، وهو المعبّر عنه بالتعريف الحقيقيّ، أو التعريف المعنويّ.

والتعريف الحقيقيّ للفلسفة هو العلم الباحث عن الأحوال العامّة للموجود.

وقـد ذكرت للفلسفة عدَّة تعاريف أشهرها أنّها ذلك العلم الجامع لكلّ العلوم

النظريّة والعمليّة. وقد يُعبّر عن الفلسفة بعلم ما بعد الطبيعة أو بالفلسفة الأولى أو الميتافيزيقيا. وأغلب هذه التسميات عبارة عن تعاريف لفظيّة.

أسئلة الدرس

١ ـ ما الفرق بين التعريف اللفظيّ والتعريف الحقيقيّ؟

٢ ـ ما هو التعريف الحقيقيّ للفلسفة؟

٣ ـ أي العلوم تشمل الفلسفة بحسب التقسيم الأرسطيّ؟

٤ ـ لماذا سمّيت الفلسفة بما بعد الطبيعة؟

الدرس الثالث

نبذةٌ عن
تاريخ الفلسفة الإسلاميّة

أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى تاريخ الفلسفة الإسلاميّة.

٢. أن يستذكر مراحل الفلسفة الإسلاميّة.

٣. أن يتعرّف إلى مسائل الفلسفة الإسلاميّة.

نبذة تاريخية

يُعـدّ تاريخ الفلسفة في الإسلام جزءاً مـن تاريخ العلوم الإسلاميّة، سواءً في ذلـك العلوم التـي أبدعها المسلمـون؛ كالفقه، والأصـول، والتفسير، والحديث، والدرايـة، والرجال، والصـرف، والنحـو، والمعاني، والبديع، والبيـان، أم تلك التي تُرجمت من خـارج العالَم الإسلاميّ، ثمّ صارت جزءاً من علوم المسلمين؛ كالطبّ والنجوم، والحساب، والهندسة، والمنطق، والفلسفة.

الحياة الفكريّة: إنّ التعرّض للحياة العلميّة والفكريّة لدى المسلمين يَضطرّنا لدراسة الفكر الإسلاميّ منذ نزول الوحي على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وممّا لا شكّ فيه أنّ القـرآن الكريم قد تعرّضـ في بعض آياته لبعض المسائـل العقليّة والفكريّة، وقـد استعمل الاستدلالات المنطقيّة والقياسيّة، وحثّ كثيـراً على التعقّل والتأمّل والتدبّر.

كما أنّنا نجد في الكلمات المأثورة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبالخصوص في الآثار المرويّة عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أبحاثاً عقليّةً دقيقةً وعميقةً. وهذا يعني رسوخ التفكير العلميّ والأبحاث العقليّة في المجتمع الإسلاميّ. ومن الشواهد على هذا الجوّ العلميّ السائد آنـذاك؛ الأبحاث الكلاميّة العقليّة والاستدلاليّة، والنقاشات الفكريّـة حول الجبـر والاختيـار والمشيئة الإلهيّـة والتفويضـ وكلام الله وخلق

القــرآن وما شابه ذلك من الأبحاث التــي تعرّض لها المسلمون في بدايات العهد الإسلاميّ.

الحيــاة الفلسفيّــة: بعد قرنين من بزوغ الإســلام ساد[1] المجتمع الإسلاميّ جــوٌّ خاصٌّ من الحياة العلميّــة العقليّة، هي ما نُعبّر عنه بالحياة الفلسفيّة، بدأت بترجمــة الآثار اليونانيّة والإسكندرانيّة إلى اللغة العربيّة، وإن كان عهد الترجمة لم يدم طويلاً، حيث تعود الترجمات إلى القرون الثاني والثالث والرابع الهجريّة، وبلغــت الترجمة أوجها في خصوص القــرن الثالث الهجريّ، لكنّها انحسرت في هــذا القرن حيث بدأ المسلمون بالتأليف والتصنيف والتحقيق. ويُعدُّ **يعقوب بن إسحــاق الكنــديّ** المتوفّى ٢٦٠ هـــ[2]، أوّل فيلسوفٍ إسلاميّ ترك آثاراً ومؤلّفاتٍ كثيرةً.

مراحل الفلسفة الإسلاميّة:

وبعــد أن اتسعت منطقة النفوذ الإسلامــيّ، ودخلت في الإسلام أُممٌ متنوّعةٌ، خضــع كثيــرٌ مــن المراكــز العلميّة للنّفــوذ الإسلامــيّ، فتبــادل العلمــاء العلم والمعلومــات، والكتب والمكتبات، من شتّى المعارف والعلوم واللغات، ممّا ساعد أيضاً على نموّ الثقافة، لا سيما الفلسفيّة منها.

لكــن تبقــى المشكلة الأساس هي فقــدان اللغة المشتركــة[3] والاصطلاحات المتّفــق عليهــا بين المترجميــن، والمؤلّفيــن، والاختلاف في الأُسُــس الفلسفيّة

(١) ويعــزو الباحثــون في تاريخ العلوم الإسلاميّة هذا النموّ الثقافيّ وبالخصوص الفلسفيّ إلى أحد عاملين رئيسين: الأرضيّة التــي أسّسهــا القرآن الكريم ورسول الله ﷺ في الحثّ على العلم والتعلّم ولــو بسفك المهج وخوض اللجج، والحرص على طلب العلــم ولو في الصيــن، والعامل الآخر سياسيّ بطبعه، فقد كان يشعر الخلفاء بضرورة تزيين بلاطهم بالعلماء المزوّدين بعلوم اليونان والرومان والفرس؛ وذلك لجلب النظر إليهم ولفته عن غيرهم ممّن هو أهل وأحقّ بالخلافة.

(٢) ابن النديم / الفهرست / تحقيق تجدد ـ رضا / طهران/ ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) لا نقصــد بذلــك عدم وجود لغةٍ مشتركةٍ بين الشعوب، فإنّ اللغــة العربيّة كانت هي اللغة المشتركة، وكانت المرجع، فهي لغــة القرآن والنبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام، وكلّ الأحاديث كانت بهذه اللغــة الأمّ، ولكن نقصد بذلك لغة الاصطلاح الخاصّ ضمن العلم الواحد.

بين الشرق والغــرب. وهذه المشكلة جعلت تعليم الفلسفــة أمراً عسيراً، وعمليّة البحــث والاختيــار أمراً أشدّ عُســراً. لكنّه لم يمضِ وقتٌ طويــلٌ حتّى ظهر نوابغٌ مــن قبيــل أبي نصــر الفارابي وابــن سينا، وغيرهمــا ممّن بذلوا جهــداً جبّاراً، فتعلّموا مجموعة الأفكار الفلسفيّة في ذلك العصر، وبدأوا بالبحث والاصطفاء، بمــا مُنحوا من مواهب واستعدادات تفتّحت في ظــلّ أنوار الوحي وأحاديث قادة الديــن، فصاغــوا نظامــاً فلسفيّاً ناضجــاً يتضمّن أفــكار أفلاطــون، وأرسطو، والأفلاطونيّين المحدثين، وأفكاراً أخرى جديدةً هم ابتكروها، وإن كانت صبغة الفلسفة الأرسطيّة والمشائيّة هي الغالبة على فلسفتهم(١).

ثــمّ خضــع هذا النظام الفلسفــيّ للنقد مجدّداً على يد علمــاء آخرين أمثال: الغزالي، وأبي البركات البغداديّ، والفخر الرازي. وفي المقابل أسّس السهروردي مذهبــاً جديداً خاصّاً عُرف باسم المذهــب الإشراقيّ، مستفيداً من آثار حكماء إيران القديمة، ومقارنتها بأفكار أفلاطون والأفلاطونيّين المحدثين، وإن كانت صبغــة الفلسفــة الأفلاطونيّة هي الغالبــة على فلسفته. وبذلــك توفّرت الأرضيّة مجدّداً في الساحة الفكريّة الإسلاميّة، لصراعٍ فكريٍّ فلسفيٍّ جديدٍ بين مدرسةِ أفلاطــون ومدرسةِ أرسطو المدعّمتين بالتفكيــر الإسلاميّ، ممّا ساعد على نموّ التفكير الفلسفيّ الإسلاميّ.

ومــرّت عدّة قــرون ظهر فيها فلاسفةٌ عظامٌ كالشيــخ نصير الدين الطوسيّ، والمحقّق الدوّاني، والسيّد صدر الدين الدشتكيّ، والشيخ البهائيّ، والميرداماد، فأغنــوا الفلسفــة الإسلاميّــة بأفكارهم الخصبــة والنيّرة، إلــى أن انتهى الأمر إلــى صدر الدين الشيرازيّ المعروف بالملا صــدرا، أو بصدر المتألّهين، الذي جــاء - نتيجة نبوغــه الفريد - بنظامٍ فلسفيٍّ جديدٍ، ركّــب بين جميع الفلسفات

(١) راجــع: مصبــاح ـ محمّد تقي/ المنهج الجديد في تعليم الفلسفــة: / ترجمة: الحاقاني ـ محمّد عبد المنعم/ دار التعارف للمطبوعات ط.١٩٩٠/ ج١ ص ٢٠.

المتقدّمـة عليه بشكل منسجمٍ، وأضفى عليها الغطاء القرآنيّ والروائيّ، مضيفاً أفكاراً عميقةً وآراءً قيّمةً، وسمّى فلسفته بالحكمة المتعالية.

مسائل الفلسفة:

بعـد أن اطلعنا على موضـوع الفلسفة وأنّه الوجود أو الموجـود بشكلٍ مطلقٍ، وتعرّضنـا لنبذةٍ تاريخيّةٍ مختصرةٍ حول سيـر الفلسفة في الأوساط الإسلاميّة، فمـن المناسب جدّاً أن نطّلع على المسائـل الفلسفيّة التي يدور البحث عنها في هذا العلم، ولو كإشارةٍ مع بعض التوضيحات حتى يُصبح هذا العلم واضحاً عمّا يتحدّث، وحول أيّ شيءٍ يتمحور.

تـدور مسائل الفلسفـة حول محور الوجـود أو الموجود، فهو مـن قبيل جسم الإنسـان بالنسبة لعلم الطبّ، أو من قبيل العـدد بالنسبة لعلم الحساب. وجميع مسائل الفلسفة تدور حول هذا الموضوع الذي هو الوجود. ومن الطبيعيّ جدّاً أن لا تتعرّض الفلسفة للبحث عن الموجودات الجزئيّة حيث إنّها لا حصر لها، فهي تتعرّض للبحـث عن الوجود من ناحيةٍ كليّةٍ، ولكن يمكن أن نرتقي أكثر من ذلك ونوضّح طبيعة هذه المسائل عبر بيان أنواع المسائل الفلسفيّة:

١ ـ المسائل المرتبطة بالوجود والتي تشكّل نقطةً مقابلةً له:

أي الماهيّـة والعدم. ففـي الواقع والعالَم العينيّ لا يوجـد شيءٌ سوى الوجود، ولكـنّ الذهـن البشريّ – القـادر على خلق الصـور والمفاهيم – يُنتـج في مقابل الوجـود مفهوم العدم، ومفهوم الماهيّة. وفي الفلسفة الإسلاميّة توجد سلسلةٌ من المسائل ترتبط بالوجود والعدم، وهناك سلسلةٌ أخرى ترتبط بالوجود والماهيّة.

٢ ـ المسائل المساوية للوجود:

فهناك بعض الصفات والمسائل التي تبحث عنها الفلسفة وتريد أن تثبتها للوجود، وهي عبارةٌ عن أشياء مساويةٌ لنفس الوجود، من قبيل: **كلّ وجودٍ هو**

شيءٌ، وكلّ شيءٍ هو وجودٌ. فالشيئيّة من أحكام الوجود ومساويةٌ للوجود. ومن قبيل **العينيّة** والخارجيّة فهي مساويةٌ للوجود؛ فكلّ موجودٍ خارجيٌّ، يعني له عينيّة، وكلّ خارجيٌّ موجودٌ. ومن قبيل **الأصالة** فإنّها مساويةٌ للوجود؛ فكلّ وجودٍ أصيلٌ، وكلّ أصيلٌ وجودٌ. **والوحدة** مساويةٌ للوجود؛ فكلّ وجودٍ واحدٌ، وكلّ واحدٍ وجودٌ[١].

٣ ـ المسائل التي تعدّ أخصّ من الوجود:

وهذا النوع هو البحث عن تقسيمات الوجود. فهناك صفاتٌ ومسائلُ غير مساويةٍ للوجود، ولكن مع ذلك لها مقابلٌ وجوديٌّ. وتكون هذه الصفات مع مقابلها مساويةً للوجود، نذكر منها:

أ. يقسّم الموجود إلى موجود بالفعل أو موجود بالقوّة:

فبالفعل وبالقوّة معاً مساويان للوجود. فبعض الموجودات فعليّة بالنسبة لبعض الموجودات بالقوّة، وبعض الموجودات هي موجودات بالقوّة بالنسبة لموجودات فعليّة. فعلى سبيل المثال النُطفة والإنسان، تكون النُطفة بالقوّة إنساناً، ويكون الإنسانُ فعليةَ النُطفة، فالنُطفة بالقوّة بالنسبة للإنسان، والإنسان موجود بالفعل بالنسبة للقوّة.

ب. ومن قبيل الموجود إمّا خارجيّ أو ذهنيّ.

ج. وإمّا واحدٌ أو كثيرٌ.

د. وإمّا واجبٌ أو ممكنٌ.

ﻫ. وإمّا حادثٌ أو قديمٌ.

و. وإمّا ثابتٌ أو متغيّرٌ، وهكذا.

(١) وهذه المصطلحات تتعرّض لها الفلسفة، وتشرحها بشكلٍ دقيقٍ حتى لا يحصل أيّ التباسٍ أو تشويشٍ عند التعرّض لإثباتها أو نفيها. وإذا كان هناك نوع غموضٍ في هذه المصطلحات، فإنّ رفع هذا الغموض موكولٌ للورود ضمن أبحاث الفلسفة. وأمّا توضيحها في هذه الصفحات فسوف يُخرجنا عن الهدف من هذا الدرس، لأنّه مجرّد مدخلٍ إلى علم الفلسفة، لا أنّه دراسة لنفس الفلسفة ومسائلها.

ومن الطبيعيّ جدّاً أن يكون المراد هو التقسيمات الأوليّة للوجود، أي التي يتّصف بها الوجود من الناحية الكليّة؛ أي من حيث هو وجودٌ، فلا تتعرّض الفلسفة للتقسيمات الثانوية؛ كتقسيم الموجود إلى أبيضٍ أو أسود، و كبيرٍ أو صغيرٍ، و مفردٍ أو زوجٍ، وهكذا، فإنّها تقسيمات للموجود لكن بما هو جسمٌ لا بما هو موجودٌ.

٤ ـ المسائل المرتبطة بالقوانين الكليّة:

الحاكمة على الوجود، من قبيل العليّة؛ فإن عالَم الوجود بأسره خاضعٌ لنظام العلّة والمعلول، ومن قبيل الضرورة الحاكمة على نظام العليّة، والتقدّم والتأخّر والمعيّة التي هي من مراتب الوجود.

٥ ـ المسائل المرتبطة بإثبات طبقات الوجود:

أو ما يُعبّر عنه بعوالم الوجود، فالحكماء المسلمون يعتقدون بأنّ للوجود أربع نشآت أو أربعة عوالم كليّة وهي:

عوالِم الوجود:

أ. عالَم الطبيعة: ويُعبّر عنه بعالَم الناسوت؛ وهو عالَم المادة والحركة والزمان والمكان؛ أي عالم الدنيا والمحسوسات.

ب. عالَم المثال: ويُعبّر عنه بعالَم الملكوت، وهذا العالَم أعلى من الطبيعة، وله صورٌ وأبعادٌ لكنّه يفتقد الحركة والزمان والتغيّر.

ج. عالَم العقل: ويُعبّر عنه بعالَم الجبروت؛ وهذا العالم هو عالم العقول وعالَم المعنى المتجرّد عن الصوَر والأشباح وهو فوق عالَم الملكوت.

د. عالَم الألوهيّة: ويُعبّر عنه بعالَم اللاهوت؛ وهو عالَم الأحديّة.

ونلاحظ أنّ كلّاً من هذه العوالِم له مسائلُ ترتبط به، ولكن بعضٌ منها يرتبط بعالَم الطبيعة مع ما فوقها، وهي المسائل التي تتعلّق بالسير النزوليّ للوجود من

عالَم اللاهوت حتى عالَم الطبيعة، وبالسير الصعودي للوجود من عالَم الطبيعة حتّــى العوالم التي فوقها، خصوصاً بالنسبة للوجــود الإنسانيّ، والذي يُعبّر عنه بالمَعــاد، وهــو البحث الذي احتلّ قسماً كبيراً من الفلسفــة الإسلاميّة خصوصاً فلسفة الحكمة المتعالية لصدر المتألّهين.

خلاصة الدرس

١ ـ عنــد دراسة الحياة العلميّة والفكريّة لدى المسلمين نضطرّ لدراسة الفكر الإسلاميّ منذ نزول القرآن الكريم، فنجد أنّه قد تعرّض لبعض المسائل العقليّة، واستعمــل الاستدلالات المنطقيّة والقياسيّة. كمــا أنّنا نجد في الكلمات المأثورة عــن النبــيّ الأكــرم صلى الله عليه وآله وسلم وبالخصوص فــي الآثــار المرويّة عن أميــر المؤمنين عليه السلام ، أبحاثــاً عقليّــةً دقيقــةً وعميقةً، وهذا يعنــي رسوخ التفكيــر العلميّ في المجتمع الإسلاميّ.

وبعد قرنين من بــزوغ الإسلام ساد المجتمع الإسلاميّ جوٌّ خاصٌّ من الحياة العلميّــة العقليّة، نعبّــر عنه بالحيــاة الفلسفيّة، بــدأت بترجمة الآثــار اليونانيّة والإسكندرانيّة إلى اللغة العربيّة، لكنّها انحسرت في القرن الثالث الهجريّ حيث بدأ المسلمون بالتأليف والتصنيف والتحقيق.

٢ ـ وبعــد دخــول أُممٍ متنوّعة في الإســلام، خضع كثيرٌ مــن المراكز العلميّة للنّفوذ الإسلاميّ، فتبادل العلماء العلم والمعلومات، ممّا ساعد على نموّ الثقافة، لا سيما الفلسفيّة منها. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى ظهر نوابغٌ من قبيل أبي نصر الفارابيّ وابن سينا، وغيرهما ممّن بذلوا جهداً جبّاراً في الفلسفة وصاغوا نظاماً فلسفيّــاً ناضجاً يتضمّن أفــكار أفلاطون، وأرسطــو، والأفلاطونيّين المحدثين، وأفكاراً أخرى جديدةً هم ابتكروها.

ثمّ خضع هذا النظام الفلسفيّ للنقد مجدّداً على يد علماء آخرين أمثال: الغزالي،

والفخر الرازي. وفـي المقابل أسّس السهروردي مذهباً جديداً خاصّاً عُرف باسم المذهب الإشراقيّ. وتوفّرت بذلك الأرضيّة مجدّداً في الساحة الفكريّة الإسلاميّة، لصـراعٍ فكـريٍّ فلسفيٍّ جديدٍ بين مدرسـةِ أفلاطون ومدرسـةِ أرسطو المدعّمتين بالتفكير الإسلاميّ، ممّا ساعد على نموّ التفكير الفلسفيّ الإسلاميّ.

ومـرّت عدّة قـرون ظهر فيها فلاسفةٌ عظامٌ كالشيـخ نصير الدين الطوسيّ، والشيـخ البهائي، فأغنوا الفلسفة الإسلاميّة بأفكارهـم الخصبة، إلى أن انتهى الأمـر إلى الملّا صدرا، الذي أتى بنظامٍ فلسفيٍّ جديدٍ، وأطلق على فلسفته اسم الحكمة المتعالية.

٣ ـ تـدور مسائـل الفلسفة حول محور الوجـود، فهو من قبيل جسـم الإنسان بالنسبة لعلم الطبّ، والفلسفة لا تتعرّض للبحث عن الموجودات الجزئيّة لأنّها لا حصر لها، ويمكن تقسيمها إلى:

١ ـ المسائـل المرتبطـة بالوجـود والتي تشكّل نقطـةً مقابلةً لـه؛ أي الماهيّة والعدم.

٢ ـ المسائل المساوية للوجود.

٣ ـ المسائل التي تعدّ أخصّ من الوجود.

٤ ـ المسائـل المرتبطـة بالقوانيـن الكليّـة: الحاكمة على الوجـود، من قبيل العليّة.

٥ ـ المسائل المرتبطة بإثبات طبقات الوجود؛ أو ما يُعبّر عنه بعوالم الوجود.

فالحكماء المسلمون يعتقدون بأنّ للوجود أربعة عوالم كليّة وهي:

أ ـ عالَم الطبيعة ويُعبّر عنه بعالَم الناسوت.

ب ـ عالَم المثال ويُعبّر عنه بعالَم الملكوت.

ج ـ عالَم العقل ويُعبّر عنه بعالَم الجبروت.

د ـ عالَم الألوهيّة ويُعبّر عنه بعالَم اللاهوت.

أسئلة الدرس

١ ـ متى بدأت الحياة الفكريّة الإسلاميّة؟

٢ ـ كيف تطوّرت الحياة الفكريّة الفلسفيّة في العهد الإسلاميّ؟

٣ ـ عدِّد أهمّ المدارس الفلسفيّة الإسلاميّة.

٤ ـ ما هي الأقسام الفلسفيّة الخمسة باعتبار محور الوجود؟

٥ ـ ما هي عوالم الوجود في الفلسفة الإسلاميّة؟

الدرس الرابع

تقسيم الأبحاث الفلسفيّة

أهداف الدرس

1. أن يتعرّف الطالب إلى دور المسلمين في العلوم.
2. أن يتعرّف إلى التقسيم التاريخيّ لأبحاث الفلسفة الإسلاميّة.
3. أن يتعرّف على أهمّ المصطلحات الفلسفية.

دور المسلمين في العلوم:

يتّفق المحقّقون والمؤلّفون في تاريخ العلوم على أنّ كلّ هذه العلوم المذكورة في بداية الدرس، تطوّرت وتكاملت في العالم الإسلاميّ، وكان للمسلمين من خلالها دورٌ بارزٌ في تقدّم الثقافة البشريّة وتكامل العلوم[1].

يقول دليس أوليري: «**إنّ ما وصل من اليونان إلى العرب (المسلمين)، لم ينتقل إلى الآخرين كما كان في البداية وبدون أيّ تغيير، وإنّما لا بدّ من القول بأنّ العلوم اليونانيّة، كانت قد اتخذت لنفسها حياةً، ونشوءاً، ونموّاً خاصّاً، في المحيط العربيّ (الإسلاميّ). فلقد استوعب هؤلاء أعمال الهنود واليونان في النجوم، والرياضيّات، ثمّ نظّموها ورتّبوها ترتيباً جيّداً. ولهذا تقدّم هذان الفرعان من العلوم تقدُّماً ملحوظاً، على أيدي الناطقين بالعربيّة.**

ويمكن القول بأنّ علم الجبر، والمثلّثات المستوية والكرويّة، كانت من العلوم التي أوجدها العلماء العرب (المسلمون) ووسّعوها. فلقد أفلح هؤلاء في الأرصاد الفلكيّة، وإعداد كتب الزيجات[2]، بمهارةٍ كاملة. ولم يكتفوا

(١) مطهري - مرتضى/ محاضرات في الفلسفة الإسلاميّة / دار الكتاب الإسلاميّ / ط. الأولى ١٤١٥ هـ/ ص ٣٦.

(٢) الزيجات: جمع زيج وهو يطلق على الجداول الفلكيّة القديمة، وأصل الكلمة فارسيّ، ومن أشهر الأزياج العربيّة: الزيج الصابيّ للبتاني، والزيج الكبير الحاكمي لابن يونس، والزيج الشاهي للطوسي، وزيج الخوارزمي.

بتوسعة ما أخذوه عن اليونان، بل دقّقوا في الزيجات والأرصاد القديمة، وقاموا بإصلاحها» [1].

وقد زاد عدد المسائل الفلسفيّة على يد الفلاسفة المسلمين. فقد كانت في عهد اليونان ما يقارب المئتي مسألة، فصارت في العهد الإسلاميّ سبع مائة مسألة، أي زادت ثلاثة أضعاف ونصفاً، وهذا يدلّ على مدى تأثير الحكماء المسلمين في مسائل الفلسفة، وتعمّقهم فيها، وتأثيرهم بحيث يمكن القول إنّها صارت فلسفةً جديدةً.

التقسيم التاريخيّ لأبحاث الفلسفة الإسلاميّة:

ويمكن إلقاء نظرة تاريخيّة على هذه الأبحاث المتقدّمة، ومدى دخالة الحكماء المسلمين فيها، بعد أن تقدّم منّا أنّ لحكماء المسلمين دوراً مهمّاً في مسائل الفلسفة. وعلى هذا الصعيد يمكن تقسيم مسائل الفلسفة إلى خمسة أنواع:

١ ـ المسائل التي بقيت على صورتها الأولى:

ولم يحدث فيها أيُّ تغييرٍ أو تكميلٍ تقريباً؛ من هذا القبيل مباحث المقولات العشر (تنقسم الماهيّة إلى جوهر وعرض، والجوهر هو الموجود لا في موضوع، والعرض هو الموجود في موضوع، والأخير ينقسم إلى تسعة مقولات أو أجناس عالية هي:

الكمّ، (كالنقطة والخطّ)، الأين، متى، الوضع، المدّة، الإضافة (كالأب)، أن يفعل (كالتسخين)، أن ينفعل (كالمتسخّن)، والمستند في ذلك الاستقراء.

العلل الأربع (العلّة الماديّة، الصوريّة، الفاعليّة، الغائيّة)، قوى النفس (العاقلة، الفاهمة، المتخيّلة)، فإنّ هذه المسائل قد احتفظت بمظهرها العامّ

(١) انتقال العلوم اليونانيّة إلى العالم الإسلاميّ: ص٦، (نقلاً عن: مطهري ـ مرتضى/ محاضرات في الفلسفة الإسلاميّة/ دار الكتاب الإسلاميّ/ ط. الأولى ١٤١٥ هـ/ ص ٣٧).

إجمـالاً، أي إنّ التغييـر الحاصل عليها لم يكن بدرجةٍ أخرجها فيها عن صورتها الأولـى. فالمقولات قد تعرّض لها الحكماء المسلمون، وأورد ابن سينا تحقيقاتٍ قيّمـةً فيهـا، وكذلك من بعده المـلّا صدرا، وغيرهما من الحكمـاء، إلّا أنّ شكل المقولات العشر والمظهر العام لها ما زال على حاله من عهد أرسطو.

٢ ـ المسائل التي أكملها الفلاسفة المسلمون:

بنحـوٍ ثبّتـوا أُسُسَها، ورسّخـوا استدلالها، إمّـا بتغيير برهانهـا، أو بإضافة براهين جديدةٍ عليها. ومن هذا القبيل مسألة امتناع التسلسل(١)، تجرّد النفس، إثبات الواجب، توحيد الواجب.

وتجدر الإشارة إلى البراهين القيّمة التي أُضيفت إليها، فإنّ إضافة البراهين لها قيمةٌ عاليـةٌ في الفلسفة، بخلافه في الرياضيّات، فـإنّ المفاهيم الرياضيّة لسهولتها تقتنع النفس بها وتصدّقها من خلال برهانٍ واحدٍ، وإضافة أيّ برهانٍ جديـدٍ يعدّ لوناً من التفنّن الفكريّ لا غير. أمّـا في الفلسفة فلصعوبة مفاهيمها ومطالبهـا فإنّ النفس قد لا تقتنع من برهـانٍ واحدٍ، لذلك فإنّ أيّ برهانٍ جديدٍ قـد يكون أسهل لبعض الأذهان من غيره، وهذا يضفي على الإكثار من البراهين الفلسفيّة قيمة رفيعة.

وأوضـح مثالٍ علـى هذا النوع مـن المسائل هـو برهان التسلسـل، فقد ذكر أرسطـو برهاناً واحـداً على امتناع التسلسل، ولكـنّ المتأخّرين ذكروا ما يقارب عشرة براهين. وهناك برهان ذكر عن الميرداماد، وآخر عن صدر المتألهين.

وكذلك مسألة إثبات الواجب، فقد ذكر القدماء برهان المحرّك الأوّل، ولكن استطـاع المسلمون أن يقيمـوا براهين عدّةً ومحكمةً لإثبـات الواجب؛ فقد ذكر ابـن سينا برهاناً عن طريق الوجوب والإمكان، اسماه ببرهان الصدّيقين، وجاء

(١) راجع بداية الحكمة، المرحلة السابعة، الفصل الخامس.

صدر المتألّهين ليذكر برهان الصدّيقين الخاصّ به القائم على أُسس فلسفته هو، بشكلٍ مختلفٍ عن برهان ابن سينا.

٣ ـ المسائل التي ظلّت على عنوانها ولكن تغيّر محتواها تغيّراً كليّاً في العهد الإسلاميّ:

فهي رغم قدمها إلّا أنّها كانت مُبهمةً وغير واضحةٍ. وبالتدريج اتضحت وظهرت، وبذلك يكون المحتوى والمضمون لهذه المسائل قد تغيّر بالكامل، بحيث لو عُرضت على قائلها لما عُرف منها إلّا اسمها.

ومن ذلك «**المثل الأفلاطونيّة**»، فإنّ القول بالمثُل اشتهرت نسبته إلى أفلاطون، وقام أرسطو في مواجهة هذه النظريّة، وهاجمها ابن سينا في العهد الإسلاميّ بشدّةٍ، إلّا أنّه تبنّاها شيخ الإشراق السهرورديّ، وأيّدها الميرداماد، حتّى جاء صدر المتألّهين ليهاجم ابن سينا ويدافع عن هذه النظريّة بشدّةٍ. ولو راجعنا عبارات القائلين بنظريّة المُثل لوجدنا أنّهم مختلفون في المضمون وما يريدون إثباته من خلالها، ولا يتّفقون إلّا بالإسم.

٤ ـ المسائل المستحدثة:

وهي المسائل التي طُرحت ولأوّل مرّةٍ في العهد الإسلاميّ، فعنوانها ومحتواها لم يُطرحا من قبل. وهذه المسائل تشكّل العمود الفقريّ للفلسفة الإسلاميّة.

وأبرز تلك المسائل هي مسائل الوجود؛ كالبحث عن أصالة الوجود، والوجود الذهنيّ، أحكام العدم، امتناع إعادة المعدوم، ملاك الاحتياج إلى العلّة، أقسام الحدوث، الحركة الجوهريّة، المعاد الجسمانيّ البرزخيّ، العلم البسيط الإجماليّ للباري وغيرها.

٥ ـ المسائل التي تغيّر موضعها في العلوم:

وهي المسائل التي كانت تُدرج في الطبيعيّات أو المنطق، لكنّها نُقلت بالتدريج

في العهد الإسلاميّ لتدرج في الفلسفة الأولى.

من هذا القبيل مبحث المقولات، فقد ذكرها أرسطو في المنطق، وتابعه على ذلك ابن سينا فذكرها في «**منطق الشفاء**»، و«**منطق النجاة**»، لكن بالتدريج أدرجها الفلاسفة المسلمون ضمن أبحاث الفلسفة الأولى.

ومن قبيل مبحث الحركة؛ فقد ذكرها أرسطو في كتاب الطبيعيّات، باعتبار أن الحركة من مسائل الجسم الطبيعيّ، وتابعه على ذلك ابن سينا. لكن عندما جاء صدر المتألّهين أثبت الحركة في الجوهر، وصار هذا البحث من المقوّمات الحقيقيّة لوجود الجسم فأُدخلت في مباحث الفلسفة الأولى.

ومن هذا القبيل مباحث النفس، فقد ذكرها أرسطو في كتاب الطبيعيّات، وتابعه على ذلك ابن سينا، وقال الأخير في كتاب «**إلهيّات الشفاء**»: إنّ بعض المسائل ذات وجهين، فمن جهة تدخل في أبحاث الطبيعيّات، ومن جهةٍ أخرى تدخل في أبحاث الفلسفة الأولى. وقد غلّب صدر المتألّهين الجهة الثانية على الجهة الأولى.

خلاصة الدرس

أ ـ يتّفق المحقّقون في تاريخ العلوم على أنّ كلّ هذه العلوم المذكورة تطوّرت وتكاملت في العالم الإسلاميّ، وكان للمسلمين من خلالها دور بارز في تقدّم الثقافة البشريّة وتكامل العلوم.

ب ـ يمكن تقسيم مسائل الفلسفة إلى خمسة أنواع:

١ ـ المسائل التي بقيت على صورتها الأولى، ولم يحدث فيها أيّ تغييرٍ أو تكميلٍ تقريباً.

٢ ـ المسائل التي أكملها الفلاسفة المسلمون، بنحوٍ ثبّتوا أُسُسَها، ورسّخوا استدلالها، إمّا بتغيير برهانها، أو بإضافة براهين جديدةٍ

عليها.

٣ ـ المسائل التي ظلّت على عنوانها ولكن تغيّر محتواها تغيّراً كليّاً في العهد الإسلاميّ.

٤ ـ المسائل المستحدثة؛ وهي المسائل التي طُرحت ولأوّل مرّةٍ في العهد الإسلاميّ.

٥ ـ المسائل التي تغيّر موضعها في العلوم؛ وهي المسائل التي كانت تُدرج في الطبيعيّات أو المنطق، لكنّها نقلت بالتدريج في العهد الإسلاميّ لتُدرج في الفلسفة الأولى.

أسئلة الدرس

١- تحدّث بإيجاز عن دور المسلمين في العلوم؟

٢ - ما هي أنواع المسائل الفلسفيّة باعتبار نشأتها وتطوّرها؟

٣- ما هي أبرز المسائل المستحدثة في العهد الإسلاميّ؟

الدرس الخامس

المدرسة المشّائيّة

أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى الفلسفة المشّائيّة.

٢. أن يدرك ميزات الفلسفة المشائيّة.

٣. أن يتعرّف إلى مشكلاتها في الأوساط الإسلاميّة.

تمهيد:

بعد أن تعرّضنا لنبذةٍ عن سير الفلسفة الإسلاميّة، لا بأس بالإشارة إلى أهمّ المدارس الفلسفيّة التي سادت في الأوساط العلميّة الإسلاميّة، وتأثّر بها الحكماء المسلمون. وقد درج الباحثون في تاريخ الفلسفة لا سيما الإسلاميّة على التعرّض لهذه المدارس العلميّة. وقد اتضحت الفروق بين هذه المدارس بشكل أكثر كلّما ترسّخت فلسفةٌ جديدةٌ وكثر مناصروها ومحاربوها، ممّا ساعد على البحث والتنقيح لإثبات ميّزات الفلسفة البديلة وكشف عيوب الفلسفة المناوئة. ومن أبرز تلك المدارس: الفلسفة المشّائيّة، الفلسفة الإشراقيّة، وفلسفة الحكمة المتعالية.

١ ـ الفلسفة المشّائيّة:

أ - سبب التسمية:

يُنقل عادةً لتسمية هذه الفلسفة بالمشّائيّة سببان رئيسان:

الأوّل: ما يذكره صاحب الملل والنحل «**أمّا المشّاؤون بشكل مطلق فهم من أهل لوقين، وأفلاطون لاحترامه الحكمة كان يعلّمها دائماً وهو في حال المشي، وتبعه على ذلك أرسطو، ومن هذا الباب**

سُمي (والظاهر أنّه أرسطو)[١] وأتباعه بالمشّائين».[٢]

الثاني: إنّ أتباع هذه المدرسة يتّبعون المنهج العقليّ - على ما سيأتي توضيحه - وهو أنّهم يسيرون من المقدّمات ليشكّلوا الدليل حتى يصلوا إلى النتيجة، وهم يرفضون أيّ منهجٍ آخر، ولهذا المشي العقليّ سُمّوا بالمشّائين. **«وإذا أردنا أن نستعمل كلمةً وتسميةً تحمل في طيّاتها طريقتهم الفلسفيّة فلا يوجد أفضل من كلمة الاستدلاليّين»** [٣].

المعلّم الأول:

استطاع أرسطو وهو تلميذ أفلاطون، وكبير فلاسفة اليونان، أن يُؤسّس مدرسةً فلسفيّةً عظيمة، سيطرت على التفكير البشريّ بشتّى اتجاهاته لفترة قرونٍ متواليةٍ، وما ذلك إلّا للأُسُس المنطقيّة والعقليّة التي وضعها في قالبٍ علميٍّ دقيقٍ. ويعود الفضل الكبير في تدوين هذه القواعد وإخراجها من فطرة التفكير البشريّ السليم إلى حيّز التقنين والقواعد، لتشكل علماً مستقلاً، وقواعد عقليّةً يرجع إليها في فصل الخصومات، ويُبنى على أساسها الفكر الصحيح، والاستدلال القويم، يعود ذلك كلّه إلى أرسطو، ولذلك حاز لقب المعلّم الأول. ولم يزل كثيرٌ من قواعد هذه المدرسةِ التي أسّسها يُعمل بها إلى عصرنا الحاليّ.

الفلسفة المشائيّة في الأوساط الإسلاميّة:

انتقلت هذه الفلسفة من اللغة اليونانيّة إلى الأوساط العربيّة على يد المترجمين في عهد الترجمة الإسلاميّة. وكان من أبرز الفلاسفة العرب المسلمين يعقوب

(١) لا يمكن التشكيك في تسمية أرسطو وأتباعه بالمشّائين، واستمرار هذه التسمية في العصور الإسلاميّة، إلّا أنّ الذي يقبل الشكّ، بل النفي والإنكار، هو أن يكون أفلاطون إشراقياً. (راجع مدخل إلى الفلسفة: مرتضى مطهري/ ص١١٣).

(٢) الشهرستاني/ الملل والنحل/ دار المعرفة ـ لبنان/ ج٢ ص ١٠٢.

(٣) مطهري ـ مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ /ص ١١١.

بـن إسحاق الكنـدي، إلّا أنّ «**دوره لـم يتجاوز الشـرح والتفسيـر بالنحو الذي يجعلها مطابقةً مع الأفكار الأساسيّة في الدين الإسلاميّ**»[(١)].

وظلّـت الحركـة الفكريّة فـي الأوسـاط الإسلاميّة تتناقل أفـكار حكماء هذه المدرسـة، ترجمةً وشرحاً وتفسيـراً، حتّى جاء دور العلَمين الكبيرين؛ أبي نصر الفارابي الملقّب بالمعلّم الثاني، وأبي علي بن سينا الملقّب بالشيخ الرئيس، وهو رئيـس المدرسة المشائيّة في الفكر الإسلاميّ. فقد استطاع هذان العَلَمان ـ بعد هضـم الفلسفات والأفكار السابقة والمطروحة ونقدها ـ تطويرَ كثيرٍ من الأصول الفلسفيّة حتّى بلغت المدرسة المشّائيّة الرشد والكمال المطلوب.

لـم يكن للفلسفة قبل هذين العلَمين كيـان مستقلّ عن فلسفة أرسطو، وسائر الفلسفـات المنقولة. لكن بالجهود الجبّارة التـي بذلاها خرجت الفلسفة ككيانٍ مستقلٍّ في الأوساط الفكريّـة الإسلاميّة، وروّجا لهذه الفلسفة بشكلٍ كبيرٍ جدّاً، ولذلك استحقّا بكلّ تقديرٍ هذه الألقاب التي أُضيفت إليهما.

ميّزات المدرسة:

إنّ لـكلّ مدرسةٍ طريقةَ تفكيرٍ خاصّةً بها، وأسلوبَ بحثٍ يختلف عن المدارس الأخـرى، لذلـك بقواعدهـا وطريقتهـا وأسلوبها تشـكّل مدرسـةً مستقلّةً. ومن الضـروري جـدّاً التعرّف إلى خصائـص وميّزات كلّ مدرسةٍ علـى حدةٍ، ليمكن تمييزهـا وأتباعهـا عن الأخـرى؛ وعلى هـذا فالمدرسـة المشّائيّة تمتـاز بعدّة خصائص وميّزات:

الأولـى: المنهج العقليّ الذي يُعتمد عليه في تحقيق المسائل الفلسفيّة، حتّى في المسائل المتعلّقة بالأخلاق والسياسة، فإنّ هذه المدرسة حاولت أن تستخرج مسائلهـا من المبـادئ العقليّة عبر الطرق المنطقيّة. ومن هنـا نجد أنّ المحور

(١) الحيدري ـ كمال/ دروس في الحكمة المتعالية/ دار الصادقين/ ط. الأولى ١٩٩٩/ ج١ ص ٣٦.

الأساس الذي يقوم عليه البناء الفلسفيّ لمدرسة الشيخ الرئيس هو حاكميّة المنهج العقليّ. ونجد من أهمّ الخطوط العريضة والعامّة التي تحكم هذا النوع من التفكير، هو الموقف السلبيّ تجاه المكاشفة والشهود. وهي تبتني على أنّ الطريق الوحيد للمعرفة هو العقل، وأنّ طريق إثباتها للآخرين هو الإستدلال العقليّ لا غير.

الثانية: إنّ الروح العامّة التي تحكم هذه الفلسفة هي الاهتمام بالإلهيّات خصوصاً، وبأبحاث الفلسفة الأولى عموماً. ويبدو ذلك واضحاً من خلال مراجعة أبحاث هذه الفلسفة، ومؤلّفاتها.

الثالثة: تحاول هذه الفلسفة أن تربط أبحاثها الفلسفيّة بقضايا الإنسان، لذلك نجدها تهتمّ بالقضايا الأخلاقيّة، وانتقلت هذه المسألة إلى الفلاسفة المسلمين، فجعلوا ذلك من صميم أفكار فلسفتهم الأساسيّة. وهذا يعني وجود بعدٍ عمليّ طُعِّمت به الفلسفة النظريّة لمعالجة مشاكل الحياة الإنسانيّة.

فلاسفة هذه المدرسة:

يمكن أن نذكر أهمّ الفلاسفة المسلمين الذين ينتمون إلى المدرسة المشّائيّة، ونعدّ منهم يعقوب بن إسحاق الكندي، أبا نصر الفارابي، أبا علي بن سينا، الخواجة نصير الدين الطوسي، الميرداماد، ابن رشد الأندلسي، وابن باجة الأندلسي، ويعتبر الشيخ الرئيس هو الفيلسوف الكامل والبارز لهذه المدرسة.

والأعمّ الأغلب من كتب هؤلاء الفلاسفة يُبتنى على المنهج العقليّ والاستدلاليّ، ونذكر منها بعض كتب الشيخ الرئيس كالإشارات والتنبيهات، وقد شرح هذا الكتاب الشيخ الطوسي، وكتب: الشفاء، التعليقات، المباحثات، المبدأ والمعاد، النجاة، وعيون الحكمة.

الموقف من الشريعة:

وبما أنّ هذه الفلسفة قد تبنّاها هؤلاء الفلاسفة المسلمون، شرحاً وتكميلاً وتدعيماً وبناءً جديداً، فمن المفروض أن تأخذ هذه الفلسفة طابعها الإسلاميّ، وتكون موافقة في أصولها العامّة وخطوطها الكليّة لأفكار الشريعة الإسلاميّة.

لذلك كان أتباع هذه الفلسفة بصدد المطابقة بين المقولات الفلسفيّة التي يتبنّونها نظريّاً وبين معطيات الشريعة التي يعتقدون بها عمليّاً، وما ذلك إلّا لأنّهم كانوا عباقرةً مسلمين قبل أن يكونوا فلاسفةً مشّائين. ومن هنا لا يمكن أن نعتبر هذه الفلسفة أنّها فلسفة عقليّة محضةً ولا تعتني أبداً بالمطابقة بين محتواها وبين الشريعة محتواها للشريعة السمحاء.

تقويم هذه المدرسة:

بعد اكتمال هذه المدرسة ونضوجها في الأوساط الإسلاميّة، يبقى السؤال عن مدى قدرتها على المطابقة بين العقل والشريعة. فهل استطاعت هذه الفلسفة أن تُثبت المعطيات الأساس للدين الإسلاميّ من خلال القواعد العقليّة والمنطقيّة التي تتبنّاها على مستوى النظريّة؟ وبتعبيرٍ آخر: هل استطاعت هذه الفلسفة أن تبني صرحاً فلسفيّاً مدعّما بالعقل والبرهان يُوافق أصولَ الشريعة وموازينها؟

«**يمكن القول: إنّ المدرسة المشائيّة لم يحالفها التوفيق كثيراً في هذا المجال، بالأخصّ في البحوث المرتبطة بعلم النفس الفلسفيّ، وعلم المعاد، وكذلك ما يرتبط بالنشآت الوجوديّة التي سبقت عالمنا المشهود، وغيرها من المسائل الأساسيّة الكثيرة التي أخفقت في تحقيقها فلسفيّاً وعقليّاً**»[1].

ولعلّ أبرز أسباب هذا الإخفاق هو اعتماد فلاسفتها على القواعد العقليّة التي أسّسوها، ومعاملتهم لها معاملة النصوص المنزلة التي لا يمكن المساس بها،

(١) الحيدري. كمال/ دروس في الحكمة المتعالية / دار الصادقين/ ط. الأولى ١٩٩٩/ ج١ ص ٣٩.

وأنّها قضايا عقليّةٌ ضروريّةٌ لا تقبل الخطأ ولا النقد ولا التمحيص. ولذلك أخذوا بالتفكير بالمعطيات الشرعيّة والدينيّة، محاولين تطبيقها على هذه القواعد الفلسفيّة المعصومة بنظرهم، فوقعوا في إشكاليّة «وورطة تأويل النصوص الدينيّة بما ينسجم مع النتائج العقليّة»[1].

فكأنّ التفكير الباطنيّ لهؤلاء الفلاسفة كان يعتمد على أنّ معطيات العقل لا تقبل البحث والنقد، بخلاف المعطيات الشرعيّة، حيث تقبل الأخيرة التفسير والتأويل والتطبيق، فابتعدوا بذلك عن ظواهر الشريعة، فواجهوا تيّاراً فكريّاً من المتكلّمين المسلمين يتّهمهم بعدم رعاية حرمة ظواهر الشريعة، واهتمامهم الشديد بحرمة مقولاتهم العقليّة والمنطقيّة.

خلاصة الدرس

سادت في الأوساط العلميّة الإسلاميّة بعض الفلسفات، وتأثّر بها الحكماء المسلمون، من أبرزها: الفلسفة المشّائيّة، الفلسفة الإشراقيّة، وفلسفة الحكمة المتعالية.

١. **الفلسفة المشائيّة:** استطاع أرسطو أن يؤسّس مدرسةً فلسفيّةً عظيمةً سيطرت على التفكير البشريّ بشتى اتجاهاته لفترة قرونٍ متوالية. ولم يزل كثيرٌ من قواعد هذه المدرسةِ التي أسّسها يُعمل بها إلى عصرنا الحاليّ.

ثمّ انتقلت هذه الفلسفة إلى الأوساط الإسلاميّة، وظلّت الحركة الفكريّة تتناقل أفكار حكماء هذه المدرسة حتّى جاء دور العلَمين الكبيرين: أبي نصر الفارابي، وأبو علي بن سينا، فبلغت المدرسة المشائيّة الرشد والكمال المطلوب. وقد تميّزت بأمورٍ:

(١) م.ن.

الأول: اعتمادها المنهج العقليّ في تحقيق المسائل الفلسفيّة، حتّى في المسائل المتعلّقة بالأخلاق والسياسة.

الثاني: اهتمامها بالإلهيّات خصوصاً، وبأبحاث الفلسفة الأولى عموماً.

الثالث: تحاول هذه الفلسفة أن تربط أبحاثها الفلسفيّة بقضايا الإنسان، لذلك نجدها تهتمّ بالقضايا الأخلاقيّة، وهذا يعني وجود بعدٍ عمليّ طُعِّمت به الفلسفة النظريّة لمعالجة مشاكل الحياة الإنسانيّة.

لكن يبقى السؤال عن مدى قدرتها على المطابقة بين العقل والشريعة، فهل استطاعت أن تبني صرحاً فلسفيّاً مدعّما بالعقل والبرهان يوافق أصولَ الشريعة وموازينها؟

يمكن القول: إنّ المدرسة المشائيّة لم يُحالفها التوفيق كثيراً في هذا المجال، بالأخص في البحوث المرتبطة بعلم النفس الفلسفيّ، وعلم المعاد، ولعلّ أبرز أسباب هذا الإخفاق هو اعتماد أتباعها على القواعد العقليّة التي أسّسوها، وتعاملهم معها على أنّها قضايا عقليّةٌ ضروريّةٌ لا تقبل الخطأ ولا النقد ولا التمحيص.

أسئلة الدرس

١ ـ لماذا سميّت الفلسفة المشائيّة بهذا الاسم؟

٢ ـ ما هي أهمّ ميّزات الفلسفة المشائيّة؟

٣ ـ هل يمكن اعتبار هذه الفلسفة بعيدة عن قضايا الشريعة؟

٤ ـ ما هي المشكلة الأساس التي واجهت هذه المدرسة؟

الدرس السادس

المدرسة الإشراقيّة

أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى الفلسفة الإشراقيّة.

٢. أن يدرك ميّزات الفلسفة الإشراقيّة.

٣. أن يتعرّف إلى مشكلاتها في الأوساط الإسلاميّة.

شيخ الإشراق

يُعتبر الشيخ شهاب الدين السهروردي شيخ الإشراق (٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ)، زعيماً لهذه المدرسة في العصر الإسلاميّ. وهو ينسب في أول كتابه «**حكمة الإشراق**» امتداد هذه المدرسة لجماعة من الفلاسفة المتقدمين اليونانيين أمثال فيثاغورس وأفلاطون، معتبراً أنّهم كانوا من دعاة الحكمة الذوقيّة الإشراقيّة، زاعماً أنّ أفلاطون هو شيخ الإشراقيّين. ونحن لا يهمّنا مدى صحّة هذا الزعم، وأنّه كان بصدد تأييد فلسفته هذه بانتسابها للحكماء السابقين أم لا، وما يهمّ هو أنّه أسّس مدرسةً في الأوساط الإسلاميّة، تختلف عن المدرسة المشائيّة، عُرفت بِاسمِ المدرسة الإشراقيّة، أو بفلسفة الإشراق.

سبب التسمية:

لماذا يُطلق على هذه المدرسة اسم فلسفة الإشراق؟

الإشراق يعني انبثاق النور. ومن خلال هذه الكلمة أراد أصحاب هذه المدرسة أن يبيّنوا المنهج الذي يعتمدون عليه، بحيث يُميّزهم عن المنهج المشّائي. يقول المحققون: إنّ سبب ذلك هو أنّ العلم نورٌ يُشرق في قلب العارف، فهم يعتقدون «**أنّ مثل القلب مثل المرآة المجلوّة المصقولة، محاذياً للّوح المحفوظ وما عليه من العلوم والحقائق الإلهيّة، فكما لا يمكن أن يكون شيءٌ محاذياً**

للمـرآة المصقولـة ولا يؤثر فيها، فكذلك لا يمكن أن يكون شيءٌ محاذياً للوح المحفـوظ وهـو لا يـرى في المـرآة القلبيّـة الصافيـة»[١]. فهم يدّعـون أنّهم بتطهير القلب من أدران الذنوب، وبصقل النفوس من أوساخ التعلّقات الدنيويّة، تشرق العلوم والمعارف في قلوبهم، فيطّلعون على حقائق الأشياء.

ميّزات الفلسفة الإشراقيّة:

يميّز هذه المدرسة عن غيرهـا من المدارس اعتمادها في تحصيل معارفها على عدّة أمورٍ:

الأول: العقـل والاستدلال المنطقـيّ والفلسفيّ؛ فالسهروردي يقول في كتابه «المشارع والمطارحات»: **«ومن لم يتمهّر في العلوم البحثيّة، فلا سبيل إلى كتابي الموسوم بحكمة الإشراق. وهذا الكتاب ينبغي أن يقرأ قبله وبعد تحقيق المختصر الموسوم بالتلويحات»**[٢].

الثانـي: الذوق الفطـري وصفاء الباطن؛ **«وأمّا أنت إذا أردتَ أن تكون عالماً إلهيّـاً مـن دون أن تتعب وتداوم على الأمـور المقرّبة من القدس، فقـد حدّثـتَ نفسَـك بالممتنـع، أو شبيـه الممتنـع، فـإن طلبـتَ واجتهـدت لا تلبـث زمانـاً طويـلاً إلّا وتأتيـك البارقـة النورانيّـة وسترتقي إلى السكينة الإلهيّة الثابتة»**[٣].

فهذه المدرسة في الوقت الذي تتحرّى فيه الدليل العقليّ والاستدلال المنطقيّ والفلسفيّ، تُبتنى على كمال الطالب المعنويّ، ورياضته الروحيّة في جلاء الباطن حتّى يصفو القلب من الكدورات، فتشرق في أعماقه المعارف. وعلى هذا فإنّ حكمة الإشراق تسعى لإيجاد الرابطة بين عالم العقل والاستدلال وعالم الإشراق، وبعبارةٍ

(١) الآملي ـ هاشم/ جامع الأسرار/ ترجمة طباطبائي ـ جواد/ مؤسسة التاريخ العربي للنشر/ ط. الأولى ٢٠٠٥ / ص ٥٣٥.

(٢) مجموعة مصنّفات شيخ الإشراق/ منشورات معهد علوم إنساني ومطالعات فرهنكي/ ط. الثالثة ١٣٨٠ هـ ش./ج١ ص ٤٨٣.

(٣) نقلاً عن شعاع أنديشه وشهود در فلسفه سهروردي/ ديناني ـ غلام حسين/ منشورات الحكمة/ بالفارسية/ ص ٤٧.

أخرى بين الاستدلال العقليّ والشهود الباطنيّ، فهي برزخٌ بين الفلسفة المشائيّة والكلام وبين التصوّف، فمزجت بين المنهجين ممّا جعلها مدرسةً مستقلّةً.

بل تترقّى هذه الفلسفة لتقارن بين المشاهدة والبرهان: «**وأمّا من حيث وجدان الدليل وتأكد البرهان المبين، فإنّ المشاهدة أقوى من الاستدلال... وقد سئل بعض الصوفيّة: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: قد أغنى الصباح عن المصباح**»[1].

الثالث: اعتمادها على ظواهر القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، وهذا ملحوظ في كثيرٍ من أبحاثها ومطالبها، فعلى سبيل المثال عند تفسيره للوطن يقول السهروردي: «**ومعنى قوله تعالى في كلامه المجيد﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، فالرجوع يقتضي سابقة الحضور، ولا يقال لمن ما رأى مصر: ارجع إلى مصر. وإيّاك أن تفهم من الوطن دمشق أو بغداد وغيرهما، فإنّهما من الدنيا، وقد قال الشارع (حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة)**»[2].

وعلى هذا تكون هذه الفلسفة قد مزجت بين العقل والشهود والقرآن الكريم والسنّة الشريفة، طبعاً على مستوى النظريّة.

الرابع: سعت هذه المدرسة لتقدّم رؤيةً كونيّةً، عن الوجود والكون والله والآخرة. ومن هنا نجدها تتعرّض لأهمّ النظريّات التي ذكرها أفلاطون، وتدافع عنها بأسلوبها وطريقتها؛ وهي المثُل الأفلاطونيّة، والروح، والاستذكار.

(١) مجموعة مصنّفات شيخ الإشراق/ منشورات معهد علوم إنساني ومطالعات فرهنكي/ ط. الثالثة ١٣٨٠ هـ.ش./ ج٣ ص٣١٧.

(٢) م. ن، ج٣ ص ٤٦٢.

تقويم هذه المدرسة:

لقـد استطاعت هذه المدرسة أن تتخلّص من المشكلة التي واجهت المدرسة المشائيّـة، وأوجدت لقواعدها ورؤيتها أصولاً مستقـاةً من أكثر من منبعٍ واحدٍ، وحاولـت أن تمزج بين هذه المباني، فتعتمد عليها جميعاً، خصوصاً أنّ مؤسّسها فيلسوفٌ مسلمٌ مطلّعٌ على الكتاب الكريم والسنّة النبويّة، وقد اطلع على الفلسفات السابقة عليه، وهو كما اشتهر عنه نابغة عصره، وآثاره ومدرسته دليلٌ على ذلك.

لكن إلى أيّ حدّ استطاعت هذه المدرسة أن تطبّق النظريّة على الواقع؟

وكـم كانت قدرتها على إثبات هذه الدعاوى من استعمال كلّ هذه الأصول في إثباتها وذوقيّاتها ومعارفها؟

إنّ الإجابـة على هذا السؤال بحاجةٍ إلى دراسةٍ عميقـةٍ لآراء هذه المدرسة، وتتبع نتاجها العلميّ والذوقيّ، ولكن يمكن القول، بنحو الإجمال: لم تستطع هذه المدرسة أن تحقّـق النجاح العمليّ الذي حقّقته على مستوى التنظير، وإنّما كان حليف مدرسة الحكمة المتعالية.

أهمّ كتب السهروردي:

لشيخ الإشراق مصنّفات كثيرة، جُمعت مؤخراً تحت عنوان مجموعة مصنّفات شيـخ الإشراق، مؤلّفـة من خمسة مجلدات، تحـوي كلّ مؤلفاتـه ورسائله وكتبه العربية والفارسيّة،وأشهرها:

١. حكمة الإشراق.
٢. المطارحات.
٣. التلويحات.
٤. اللمحات.
٥. الألواح العماديّة.

٦. هياكل النور.

٧. المقاومات.

ويمكن القول على العموم إنّ أغلب لغة هذه المؤلفات رمزيّة، لا يمكن فهمها على ظاهرها دون اطلاعٍ على مدرسته واصطلاحاتها ورموزها.

خلاصة الدرس

فلسفة الإشراق: يُعتبر الشيخ شهاب الدين السهروردي شيخ الإشراقيّين في العصر الإسلاميّ. والذي يُميّز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس اعتمادها في تحصيل معارفها على عدة أمورٍ:

الأوّل: العقل والاستدلال المنطقيّ والفلسفيّ.

الثاني: الذوق الفطريّ وصفاء الباطن.

الثالث: اعتمادها على ظواهر القرآن الكريم، والسنّة الشريفة.

وعلى هذا تكون هذه الفلسفة قد مزجت بين العقل والشهود والقرآن الكريم والسنّة الشريفة، على مستوى النظريّة.

الرابع: سعت هذه المدرسة لتقدّم رؤيةً كونيّةً، عن الوجود والكون والله والآخرة.

وقد استطاعت هذه المدرسة أن تتخلّص من المشكلة التي واجهت المدرسة المشائيّة، وأوجدت لقواعدها ورؤيتها أصولاً مستقاةً من أكثر من منبعٍ واحد، وحاولت أن تمزج بين هذه المباني، فتعتمد عليها جميعاً. لكن إلى أيّ حدّ استطاعت هذه المدرسة أن تطبّق النظريّة على الواقع؟

إنّ الإجابـة على هذا السؤال بحاجةٍ إلى دراسةٍ عميقـةٍ لآراء هذه المدرسة، وتتبع نتاجها العلميّ والذوقيّ. ولكن يمكن القول، بنحو الإجمال: لم تستطع هذه المدرسة أن تحقّق النجاح العمليّ الذي حقّقته على مستوى التنظير.

أسئلة الدرس

١ - لماذا سمّيت الفلسفة الإشراقيّة بهذا الاسم؟

٢ - ما هي أهمّ ميّزات الفلسفة الإشراقيّة؟

٣- هل استطاعت مدرسة الإشراق تطبيق النظريّة على الواقع؟

الدرس السابع

صدرا والحكمة المتعالية

أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى صدر المتألهين.

٢. أن يتعرّف إلى الحكمة المتعالية.

٣. أن يتعرّف إلى منهجها وميّزاتها.

تمهيد:

يمكن القول إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، ولا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة وخصوصاً في الحوزات العلميّة، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمَها وأسّس قواعدَها في القرن الحادي عشر الهجريّ صدرُ الدين الشيرازيّ، الملقّب بصدر المتألّهين أو بالملا صدرا. ولا يمكن دراسة هذه الفلسفة من دون إطلالةٍ على الحياة العلميّة لهذا الفيلسوف العظيم.

من هو صدرا؟

ولد في شيراز دون أن تحدّد بالدقة سنة ولادته[1]، من والدٍ صالحٍ اسمه إبراهيم بن يحيى القوامي، وقيل إنّه كان أحد وزراء دولة فارس. وكان هو الولد الوحيد حيث حظي باهتمامٍ كبيرٍ عند والده، الذي وجّهه لطلب العلم، فبدأ دراسته في شيراز عاصمة الدولة آنذاك. وانتقل بعد وفاة والده إلى أصفهان، وأنفق كلّ ماله الذي ورثه في تحصيل العلم، فتتلمذ على يد الشيخ بهاء الدين العامليّ (٩٥٣-١٠٣١ هـ)، الذي وجّهه بعد فترة إلى فيلسوف عصره السيّد محمّد باقر الداماد (المتوفّى سنة ١٠٤٠ هـ). ويمكن تقسيم حياة فيلسوفنا العلميّة إلى ثلاث مراحل:

(١) ذكر المحقّق جلال الدين آشتياني في كتابه: شرح حال وآراء ملا صدرا ص ١ : أنّ ولادته كانت سنة ٩٧٩ هـ وعلى هذا يكون عمره حين الوفاة ٧١ سنة.

المرحلة الأولى، التلمذة:

حيث كان يتتبّع آراء المتكلّمين والحكماء ومناقشاتهم، ولم يكن في هذه المرحلة قد نضج من الناحية الفلسفيّة، ولم ينفتح له المسلك العرفانيّ. وفي هذه الفترة «**استوعب في هذا المجال من حكماء اليونان خصوصاً، أفلاطون وأرسطو، وما أبانته دراسات كبار حكماء الإسلام كالفارابيّ وابن سينا وشيخ الإشراق وغيرهم، وما ابتكره هؤلاء، كما هضم ما وصل إليه كبار العرفاء عن طريق الذوق والوجدان**»[١].

لكن مع ذلك كلّه يُعبّر هو عن هذه المرحلة بقوله: «**وإنّي كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء والنظّار، حتى ظننتُ أنّي على شيءٍ، فلمّا انفتحت بصيرتي ونظرتُ إلى حالي رأيتُ نفسي ... فارغةً من العلوم الحقيقيّة وحقائق العيان، ممّا لا يُدرك إلّا بالذوق والوجدان**»[٢].

ثمّ نجده في مقدّمة كتابه الأسفار يقول: «**ثمّ إنّي قد صرفتُ قوّتي في سالف الزمان، منذ أوّل الحداثة والريعان في الفلسفة الإلهيّة...، واقتفيت آثار الحكماء السابقين، والفضلاء اللاحقين...، وحصّلت من ما وجدته من كتب اليونانيين، والرؤساء والمعلّمين، تحصيلاً يختار اللباب من كلّ باب...، من غير أن يظفر من الحكمة بطائلٍ، أو يرجع البحث إلى نائل**»[٣]. وكأنّه يظهر الندم على هذا الجهد الذي بذله. ولكن سيبدو أنّه استفاد كثيراً في هذه المرحلة لتكوين فلسفته، وتدعيمها.

(١) مطهري ـ مرتضى/ مقدّمة على أصول الفلسفة والمذهب الواقعي/ مؤسسة أم القرى ط. الثانية ١٤٢٢ هـ / ج١ ص ٣٥.
(٢) الشيرازي – صدر الدين/ مقدّمة تفسير سورة الواقعة .
(٣) الشيرازي–صدر الدين/ الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة/ دار إحياء التراث العربيّ-بيروت/ ط. الثالثة/ ج١ ص ٤.

المرحلة الثانية، العزلة:

فقـد انقطع عن الناس إلى كهك، وهي إحدى قرى قم المقدّسة، خمسة عشر عامـاً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفيـة الفكر وتهذيب الخيال. فهو يقول بعـد أن يذكر في مقدمة كتابه الأسفار أحـوال أهل ذلك الزمان، ومعاداتهم له: «**فأمسكـتُ عناني عن الاشتغـال بالناس ومخالطتهم، وآيسـتُ من مرافقتهم، ومؤانستهـم، وسهلـت علـيّ معاداة الـدوران، ومعانـدة أبناء الزمـان، وخلصت عـن إنكارهم وإقرارهم، وتساوى عنـدي إعزازهم وإضرارهم، فتوجّهتُ توجّهاً عزيـزاً نحـو مسبّـب الأسبـاب، وتضرّعـت تضرّعـاً جبلّيّـاً إلـى مسهّـل الأمور الصعـاب، فلمّـا بقيتُ على هذا الحال مـن الإستتار والإنـزواء ... زماناً مديداً وأمـداً بعيـداً، اشتعلت نفسي لطـول المجاهدات اشتعالاً نوريّـاً، والتهب قلبي لكثـرة الرياضـات التهاباً قويّاً، ففاضت عليها أنـوار الملكوت، وحلّت بها خبايا الجبـروت، ولـحقتها الأضواء الأحديّة ...**»[١]. وبذلك يكون قد انتقل إلـى:

المرحلة الثالثة، التأليف:

فيقول «**فألهمني الله الإفاضةَ ممّا شربنا جرعةً للعطاش الطالبين، والإلاحةَ ممّا وجدنا لعُمه للقلوب السالكين، ليحيا من شرب منه جرعةً، ويتنوّر قلب من وجـد منه لعمه، فبلـغ الكتاب أجله، وأراد الله تقديمه وقـد كان أخّله، فأظهره في الوقـت الـذي قدّره، وأبرزه على من له يسّره، فرأيتُ إخراجه من القوّة إلى الفعل والتكميل، وإبرازه من الخفاء إلى الوجود والتحصيل، فأعملتُ فيه فكري، وجمعت على ضمّ شوارده أمري، وسألتُ الله تعالى أن يشدّ أزري، ويحطّ بكرمه وزري، ويشرح لإتمامه صدري، فنهضَت عزيمتي بعد ما كانت قاعدةً، وهبّت همّتي غبّ ما كانت**

(١) الشيرازي-صدر الدين / الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة/ ج١ ص٨.

راكدةً، واهتزّ الخامد من نشاطي ...»[1]، فصنّف كتاباً إلهيّاً ـ الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة ـ وبدأ في مرحلته هذه بالتأليف والكتابة.

أهمّ مؤلّفات صدر المتألّهين بعد كتاب الأسفار:

١. تفسر القرآن الكريم.
٢. شرح على أصول الكافي.
٣. مفاتيح الغيب.
٤. المبدأ والمعاد.
٥. رسالة في حدوث العالم.
٦. كتاب المشاعر.
٧. الشواهد الربوبيّة.
٨. العرشيّة.
٩. رسالة التصوّر والتصديق.

وقد طُبع أكثر مؤلّفاته التي يبلغ عددها ٣٢ كتاباً ورسالةً تقريباً.

ميّزات هذه المدرسة:

إنّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجٌ مختلفٌ عن كلّ المدارس السابقة عليه، فهو ليس منهجاً مشّائياً بحتاً، ولا إشراقيّاً بحتاً، ولا صوفيّاً، ولا كلاميّاً، «**وليست فلسفةً تجميعيّة، بل لها بناؤها الفلسفيّ المشخّص**»[2]. فهي بحقٍّ مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس. وبملاحظة حياة صدر المتألّهين بمراحلها الثلاث، يمكن استنتاج ركائز الفلسفة الني شيّدها، والأُسُس التي اعتمد عليها. فهو فيلسوف إسلاميّ قرأ كلّ ما تقدّم عليه من أفكارٍ وفلسفاتٍ،

(١) م.ن.

(٢) مطهري ـ مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ / ص ١٢٥.

وطاقـت نفسه لحياة العزلة والتصـوّف، لكنّه خرج من عزلتـه منتصراً، يحمل فلسفـةً جديدةً، لم يكن ليوفّق إليها من قبله، فكانت فلسفته مزيجاً من البرهان والوجدان والقرآن، أو قل مزيجاً من العقل والكشف والشرع.

١ ـ الجمع بين البرهان والوجدان:

أوّلاً: إنّ الحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخـر، لكن لا بنحو الفلسفة المشائيّة التي تُنكر على الشهود كلّ النكيـر، ولا كالصوفيّـة الذيـن يعترضـون ويسفّهـون العقل أيّ تسفيـه، بل هي تحارب من يعتمد على الشهـود والكشف فقط، كما وتذمّ من يعتمد على العقل والبرهان فقط.

فنجـد صدرا يشنّع علـى من ينكر العلم اللّدنيّ، بينما هـو يعتبره أقوى وأشدّ فيقول: «**إنّ كثيراً من المنتسبين إلى العلم ينكرون العلم الغيبيّ اللّدنيّ، الذي يعتمـد عليـه السلّاك والعرفاء، وهو أقوى وأحكم من سائر العلوم، قائلين ما معنى العلم إلّا الذي يحصل من تعلّمٍ أو فكريّة ورويّة**»[١].

ويذمّ المعتمدين علـى البحث والعقل فقط فيقول: «**...لا على مجرّد الأنظار البحثيّـة، التـي سيلعـب بالمعوّليـن عليهـا والمعتمديـن بهـا الشكـوك، يلعن اللاحـق منهـم فيهـا السابق، ولـم يتصالحوا عليهـا ويتوافقوا فيهـا؛ بل كلّما دخلت أمّةٌ لعنت أختها**»[٢].

فأولى «**أنّ يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة**

(١) الشيـرازي ـ صـدر الدين / مفاتيح الغيب: المشهد الثامن من المفتاح الثالث. (نقلاً عن الأمين ـ محسن / أعيان الشيعة / تحقيق الأمين ـ حسن / دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت/ ط. ١٩٨٣ / ج ٩ ص ٣٢٣).

(٢) الشيـرازي ـ صـدر الدين / الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة/ دار إحيـاء التراث العربيّ ـ بيروت/ ط. الثالثة / ج ٢ ص ٣٠٧.

بين طريقة المتألّهين من الحكماء، والمليّين من العرفاء»[1].

ويقول في موضعٍ آخر في وصف كتابه الأسفار بأنّه: «**قد اندمجت فيه العلوم التألّهيّة في الحكمة البحثيّة وتدرّعت فيه الحقائق الكشفيّة بالبيانات التعليميّة»**[2].

ويفتخر بالطريقة التي وصل إليها بأنّها «**ممّا لست أظنّ أن قد وصل إليه أحدٌ ممّن أعرفه من شيعة المشّائين ومتأخّريهم، دون أئمّتهم ومتقدّميهم، كأرسطو ومن سبقه. ولا أزعم إن كان يقدر على إثباته بقوّة البحث والبرهان شخصٌ من المعروفين بالمكاشفة والعرفان، من مشايخ الصوفيّة من سابقيهم ولاحقيهم»**[3].

وهذا يعني أنّه لم يبلغ المشّاؤون ما بلغه هو من المكاشفة والوجدان، ولا الإشراقيّون والعرفاء بلغوا ما بلغه هو بالبحث والبرهان؛ نعم يمكن القول: «**إنّ فلسفة صدر المتألّهين تشبه المدرسة الإشراقيّة من ناحية الأسلوب، أي إنّها تعتمد كلاً من الاستدلال والمكاشفة، إلّا أنّها تختلف عنها في الأُسس والاستنتاجات»**[4].

ثانياً: يقدّم البحث الفلسفيّ على الشهود الوجدانيّ، شفقةً بالمتعلّمين، وتسهيلاً عليهم، لأنّ الطالب قد لا يقتنع بالمشاهدة ولا يصدّق بها ابتداءً، لكنّه إذا وجد الدليل البحثيّ العقليّ واقتنع به، ثمّ سمع بالمشاهدة والكشف أمكنه التصديق أكثر: «**ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصّة،**

(١) الشيرازي ـ صدر الدين/ المبدأ والمعاد / تحقيق الآشتياني ـ جلال الدين/ مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامي ـ قم / ط. الثالثة ١٤٢٢ هـ/ ص ٤٩٦.

(٢) الشيرازي ـ صدر الدين/ الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة/ دار إحياء التراث العربيّ ـ بيروت/ ط. الثالثة/ ج١ ص٩.

(٣) الشيرازي ـ صدر الدين/ المبدأ والمعاد / تحقيق الآشتياني ـ جلال الدين/ مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامي ـ قم / ط. الثالثة ١٤٢٢ هـ/ ص ٤٩٦.

(٤) مطهري ـ مرتضى/ مدخل إلى الفلسفة/ دار نور المصطفى ط. ٢٠٠٧ / ص ١٢٥.

حيث سلكنا أوّلاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثمّ نفترق عنهم في الغايات، لئلا تنبو الطبائع عمّا نحن بصدده في أوّل الأمر، بل يحصل لهم الإستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول إشفاقاً بهم»[1].

٢ ـ المطابقة بين الشرع والعقل:

وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج، فلم يقع فيما وقع به المشّاؤون من تطبيق الشريعة وتأويلها بما يلائم العقل، ولم يفشل من حيث النتيجة بعدم الحصول على البراهين العقليّة بما يلائم الشريعة كما حصل للإشراقيّين، بل وجد في كلّ مسائله الفلسفيّة الحكميّة التي طرحها مطابقةً بين العقل والشرع:

«**وحاشا الشريعة الحقّة الإلهيّة البيضاء أن تكون أحكامها مصادمةً للمعارف اليقينيّة الضروريّة، وتبّاً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنّة**»[2]. وعلى هذا لا يزال يستشهد على كلّ مسألةٍ فلسفيّةٍ عويصةٍ بالآيات القرآنيّة والآثار الإسلاميّة. وهو بارعٌ في تطبيق ما يستشهد به على فلسفته. ولم يكن استشهاده بها لرفع شبهة المتّهمين له بالخروج عن الدين، بل هو من الذين يدّعون أنّه لا أحد يفهم أسرار القرآن الكريم، والسنّة الشريفة كما يفهمها هو.

وهو يسعى في كلّ ما ألّفه إلى أن يبيّن هذا المنهج الفريد، فيهدف من كتبه الفلسفيّة إلى بيان تأييد العقل للدين، ومن كتبه الدينيّة بيان تأييد الدين للعقل، فكانت كتبه كلّها دينيّةً فلسفيّةً.

٣ ـ محوريّة القرآن:

وقد يتبادر للأذهان من هذا الأسلوب الفريد الذي يتّبعه الملّا صدرا، أنّ

(١) الشيرازي-صدر الدين/ الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة/ دار إحياء التراث العربيّ-بيروت/ ط. الثالثة/ ج١ ص٨٥.

(٢) م. ن. ج ٩ ص ٣٠٢.

البرهان والعرفان والقرآن في عرضٍ واحدٍ، وأنّها طرقٌ ثلاثٌ توصل إلى الحقيقة وتكشف عنها، وأنّه لا تقدّم لبعضها على الآخر، إلّا بالأسلوب التأليفيّ والكتابيّ لإقناع الطلاب، وشفقةً بهم كما تقدّم، ولكنّ الصحيح أنّ المحوريّة الأساس للقرآن في مدرسته:

«**إنّ الحكمة المتعالية وجدت كمالها في الجمع بين الأدلّة؛ البرهان والعرفان والقرآن، وأنّه لا يوجد أيّ اختلافٍ بينها، وإنّما هي توافقٌ وانسجامٌ تامٌّ، نعم في مقام المقايسة الداخليّة بين هذه الطرق الثلاث، فإنّ المحوريّة والأصالة هي للقرآن، والآخران يدوران حوله، لا ينفكّان عنه**»[1].

حدود العقل:

ومن الضروريّ جدّاً وضوح مكانة العقل في هذه المدرسة. فقد يُتصوّر أن الحقائق، التي كشفت اللثام عنها الحكمة المتعالية، يُتوصّل إليها بالطرق الثلاث المتقدّمة، وأنّ ما يصل إليه الكشف والشهود، وما يحكي ويخبر عنه القرآن والسنّة، يمكن للعقل والبرهان أن يصل إليه، ويستدلّ عليه. وقد يُتصوّر أنّه يوجد تنافٍ بين القرآن والوجدان من جهة، والبرهان من جهةٍ ثانيةٍ، حيث إنّ هذه الطرق في عرض بعضها، والتنافي واقعٌ فيما بينها.

لكن الحقّ غير هذا؛ فإنّ هذه الطرق ليست في عرض بعضها البعض حتّى يقع التنافي فيما بينها، وإنّما هي في طول بعضها البعض، ويأتي دور المكاشفة والشهود حينما ينتهي دور العقل والبرهان.

يقول صدر المتألّهين: «**ثمّ إنّ بعض أسرار الدين وأطوار الشرع المبين بلغ إلى حدّ ما هو خارجٌ عن طور العقل الفكريّ، وإنّما يُعرف بطور الولاية والنبوّة، ونسبة طور العقل ونوره إلى طور الولاية ونورها، كنسبة نور الحسّ**

(١) رحيق مختوم: الآملي/ نقلاً عن دروس في الحكمة المتعالية/ ص ١٠٠.

إلى نور الفكر، فليس لميزان الفكر كثير فائدةٍ وتصرّف هناك»[1] .

وقـال أيضـاً: «**إنّ مقتضـى البرهـان الصحيـح ممّـا ليـس إنكاره فـي جِبلّة العقل السليم من الأمراض والأسقام الباطنة. نعم ربما يكون بعض المراتب الكماليّـة ممّـا يقصر عـن غورها العقـول السليمة، لغاية شرفهـا وعلوّها عن إدراك العقـول، لاستيطانهـا في هذه الدار وعدم مهاجرتها إلى عالم الأسرار، لا أنّ شيئاً من المطالب الحقّة ممّا يقدح فيها ويحكم بفسادها العقل السليم والذهن المستقيم**»[2] .

وينقـل عن الغزالي فيقول: «**قال الشيخ الفاضـل الغزالي: اعلم أنّه لا يجوز فـي طـور الولايـة ما يقضـي العقل باستحالتـه. نعم يجـوز أن يظهر في طور الولاية ما يقصر العقل عنه، بمعنى أنه لا يدرك بمجرّد العقل. ومن لم يفرّق بين ما يحيله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخسّ من أن يُخاطب فيترك وجهله**»[3] .

تقويم هذه المدرسة:

لقـد استطاع «**صدر المتألّهيـن أن يجمع بين الفلسفـة والعرفان، واستفاد في ذلك بالسنّة والقرآن، وبيّن المعارف الذوقيّة في صورة الدليل والبرهان، فتولّـد بهـذا الترتيـب بيـن مناهـج المعرفـة منهـجٌ حديـثٌ، وسمّـي بالحكمة المتعاليـة**»[4] . و«**استطـاع أن يحقّـق إنجـازاً ضخمـاً علـى مستـوى القواعـد والمبانـي الفلسفيّـة، أدّت إلى بناء نظامٍ عقليٍّ جديـدٍ قائمٍ على أسسٍ برهانيّةٍ يمكنها تفسير العالَم الإمكانيّ وعلاقته بمبدئه المتعالي**»[5] .

(١) الشيـرازي. صدر الدين/ شـرح أصول الكافي في آخر كتاب مفاتيح الغيب/ منشورات مكتبة المحمودي/ ط. الحجرية طهران ١٣٩١ هـ / ص ٤٦١. (نقلاً عن دروس في الحكمة ص ١٠٢).

(٢) الشيرازي. صدر الدين/ الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة/ دار إحياء التراث العربيّ. بيروت/ ط. الثالثة/ ج٧ ص٣٢٢.

(٣) م. ن.

(٤) الرمضاني. حسن/ مقدمة على كتاب التمهيد في شرح قواعد التوحيد/ مؤسسة أم القرى. قم/ ط. الأولى ٢٠٠٣م/ ص ٦.

(٥) الحيدري. كمال/ دروس في الحكمة المتعالية / دار الصادقين/ ط. الأولى ١٩٩٩/ ج١ ص ١٠٥.

وقد حَسمت هذه المدرسة النزاع بين الفلسفة المشائيّة والإشراقيّة، ولم يعد معنــى للصراع بين أرسطو وأفلاطون في هذه المدرسة، حيث وضعت كلّ مسألةٍ في مكانها، واستفادت من المناهج المعرفيّة كلّها.

يقــول المطهرّي: «**وقـد وضع صـدر المتألّهين نهايـةً حاسمةً لهـذا النزاع الطويـل (أي بيـن أرسطـو وأفلاطـون) بالأسـاس الجديـد الـذي شـاده فـي فلسفتـه. ومنـذ هـذا الزمن لم يعد معنـى لوقوف أحد هذيـن الاتجاهين في مقابل الآخر. وقد لاحظ كلّ من جاء بعده واطلع على فلسفته، أنّ النزاع الذي امتدّ لألفي عامٍ بين المشّائين والإشراقيّين قد حسم على يد هذا الفيلسوف العظيم**»[١].

خلاصة الدرس

إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، لا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة، وخصوصـاً في الحوزات العلميّة، هو فكـر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمَهـا وأسّسـ قواعدَها صدرُ الدين الشيـرازيّ، الملقّب بصـدر المتألّهين. ويمكن تقسيم حياة فيلسوفنا العلميّة إلى ثلاث مراحل:

المرحلـة الأولـى، التلمـذة: حيـث كان يتتبّـع آراء المتكلّميـن والحكمـاء ومناقشاتهـم. ولـم يكن في هذه المرحلة قـد نضج من النـاحيـة الفلسفيّة. ولم ينفتح له المسلك العرفانيّ. ولكنّه استفاد كثيراً في هذه المرحلة لتكوين فلسفته، وتدعيمها.

المرحلة الثانية، العزلة: فقد انقطع عن الناس إلى إحدى قرى قم المقدّسة خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال،

(١) مطهري ـ مرتضى/ أصول الفلسفة والمذهب الواقعي/ مؤسسة أم القرى ـ قم/ ط. الثانية ١٤٢٢ هـ / ج١ ص ١٣.

إلى أن دخل في:

المرحلة الثالثة، التأليف: فصنّف كتاباً إلهيّاً ـ الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة ـ ويكون بذلك قد دخل مرحلةً جديدة من حياته، قدّم فيها أنفس ما قدّمه للفلسفة الإسلاميّة.

يعـدّ المنهـج المتبع في مدرسـة الحكمة المتعاليـة، منهجاً مختلفـاً عن كلّ المدارس السابقـة عليه. فهو ليس منهجـاً مشّائياً بحتـاً، ولا إشراقيّاً بحتاً، ولا صوفيّاً، ولا كلاميّاً. وليست هذه المدرسة فلسفةً تجميعيّة، بل لها بناؤها الفلسفيّ المشخّص.وهـي بحقٍّ مزيجٌ مـن كلّ هذه المناهج والمدارس. وقد تميّزت عن غيرها من المدارس بأنّها:

١. **تجمع بين البرهان والوجدان**: فالحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لهـا، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، لكن لا بنحـو الفلسفة المشائيّة تنكر على الشهود كلّ النكيـر، ولا كالصوفيّة يعترضون ويسفّهون العقل أيّ تسفيه، بل هي تحارب من يعتمد على الشهود والكشف فقط، كما وتذمّ من يعتمد على العقل والبرهان فقط.

٢. **تطابق بين الشرع والعقل**: وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج. فلم يقع فيما وقع به المشّاؤون من تطبيق الشريعة وتأويلها بما يلائم العقل. ولم يفشل من حيث النتيجة بعدم الحصول على البراهين العقليّة بما يلائم الشريعة كما حصل للإشراقيّين، بل وجد في كلّ مسائله الفلسفيّة الحكميّة التي طرحها مطابقةً بين العقل والشرع. ولهذا لا يزال يستشهد على كلّ مسألةٍ فلسفيّةٍ عويصةٍ بالآيات القرآنيّة والآثار الإسلاميّة.

٣. **محوريّـة القـرآن**: وقد يتبادر للأذهان من هذا الأسلوب الذي يتّبعه الملّا صـدرا، أنّ البرهان والعرفـان والقرآن في عرضٍ واحدٍ، وأنّها طرقٌ ثلاثٌ توصل

إلــى الحقيقــة وتكشــف عنها، وأنّه لا تقــدّم لبعضها علــى الآخــر، إلّا بالأسلوب التأليفــيّ والكتابيّ لإقناع الطــلاب وشفقةً بهم كما تقدّم. ولكن الصحيح أنّه في مقام المقايسة الداخليّة بين الطرق الثلاث، فإنّ المحوريّة والأصالة هي للقرآن، والآخران يدوران حوله، لا ينفكّان عنه.

حــدود العقــل: ومن الضروريّ جــداً وضوح مكانة العقل في هــذه المدرسة. فقد يُتصوّر أن الحقائق، التي كشفت اللثام عنها الحكمة المتعالية، يُتوصّل إليها بالطــرق الثــلاث المتقدّمة، وأنّ ما يصــل إليه الكشف، وما تحكــي عنه السنّة، يمكــن للعقل أن يصل إليــه، ويستدلّ عليه. وقد يُتصوّر أنّ هذه الطرق في عرض بعضها، والتنافي واقعٌ فيما بينها.

لكــن الحقّ غير هــذا؛ فإنّ هذه الطرق ليست في عرضــ بعضها البعض حتّى يقع التنافــي فيما بينها، وإنّما هي في طول بعضها البعض، ويأتي دور المكاشفة والشهود حينما ينتهي دور العقل والبرهان.

أسئلة الدرس

١ ـ كيف تقسّم المراحل الفكريّة لحياة صدر المتألّهين؟

٢ ـ من هم أهمّ أساتذته وما هي أهمّ مؤلّفاته؟

٣ ـ ما هي ميّزات الحكمة المتعالية؟

٤ ـ ما هي حدود العقل في هذه المدرسة؟